محمد زفزاف

الثعلب الذي يظهر ويختفي

مكتبة
الأدب
المغربي

منشورات الجمل

رواية

محمد زفزاف: الثعلب الذي يظهر ويختفي

محمد زفزاف

الثعلب الذي يظهر ويختفي

رواية

منشورات الجمل

ولد محمد زفزاف عام ١٩٤٥ في منطقة الغرب بالمغرب. نشر أولى محاولاته الشعرية والنثرية في أوائل الستينات، في مجلة «شعر» - بيروت؛ جريدة «العلم» ومجلة «أقلام» - المغرب. من مؤلفاته: **حوار في ليل متاخر**، قصص (١٩٧٠)؛ **المرأة والوردة**، رواية (١٩٧٢)؛ **أرصفة وجدران**، رواية (١٩٧٤)؛ **قبور في الماء**، رواية (١٩٧٨)؛ **غجر في الغابة**، قصص (١٩٨٢)؛ **بيضة الديك**، رواية (١٩٨٤)؛ **الملاك الأبيض**، قصص (١٩٨٨) و**بائعة الورد**، قصص (١٩٩٦). توفي عام ٢٠٠١.

محمد زفزاف: **الثعلب الذي يظهر ويختفي**، رواية
رسمة الغلاف: ميخائيل شاكفيتس، خط الغلاف: صادق الصايغ
كافة حقوق النشر بالعربية خارج المغرب محفوظة لمنشورات الجمل
الطبعة الثانيه ٢٠٠٧
© *Al-Kamel Verlag* 2004
Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

منشورات الجمل - العراق
بغداد، شارع المتنبي، مجمع الأدباء
الطابق الأول
موبايل: ٠٧٩٠١٣١٠١٤٠

© *Al-Kamel Verlag 2004*
Postfach 210149
50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982
Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

(1)

باسم الله الرحمٰن الرحيم أبدأ كلامي فأروي لكم ما يلي:

مدينة الصويرة كالمرأة والمرأة هي القفل والمفتاح معاً، مشيت بحذر وذهول داخل الأزقة الضيقة. كانت الأزقة أحياناً تتسع لشخصين فقط. وأحياناً بدون منفذ. دخلت إلى أول فندق. نمت حوالي الساعة لأنني لم أنم أمس بما فيه الكفاية. قبل لحظة فوجئت لغرابة سلوك فتاة رجولية. شاب أخطئ تكوينه، لكن صوته صوت أنثى. عندما وقفت أمام المستخدم. تأملتني بسرعة وقالت:

- دعه يشاركني الغرفة. إن عندي سريراً إضافياً.

- هذا شيء ممنوع.

- ولماذا تفعلون ذلك مع الهيبيين؟

- أنت مسلمة. المعلم لا يهمه سوى الفلوس نامي مع من تشائين. لكن الشرطة تدس أنفها في كل شيء.

قالت الفتاة:

- سوف أجيء عندك إلى الغرفة في الليل. اختر له غرفة قرب غرفتي.

ـ أنت تريدين أن تخلقي لي المشاكل مع المعلم. سوف ألقي بثيابك إلى الخارج.

ـ هل تستطيع ذلك؟ إني زمورية وأجرك على الله.

سكت المستخدم وناولني المفتاح. صعدت معي الدرج وصعد مستخدم آخر. أخذت تجيل النظر في الغرفة.

ـ أنتم تريدون أن تقتلوه. النافذة بدون زجاج.

قال المستخدم:

ـ قوليها للمعلم عندما يأتي في المساء. ثم إن الفنادق كثيرة في الصويرة. هل وضعنا له ربقة في عنقه؟

انسحب المستخدم، وجلست هي إلى جانبي في السرير. أخرجت علبة سجائر من بين نهديها. ناولتني واحدة ثم انصرفت. نمت بعد ذلك حوالي الساعة. شعرت عندما استيقظت براحة فائقة. كان هناك صمت وهدوء تامان صمت مثل صمت القبور. لا أصوات محركات ولا أصوات آدمية. كل شيء هادئ. ريح خفيفة تهب من مربع الزجاج المكسور عندما وقفت وحاولت أن أطل من وراء النافذة، لم يكن هناك سوى ساحة صغيرة تراكمت عليها أزبال أو أشياء تشبهها. كانت هناك أيضاً نوافذ مغلقة، والمفتوحة منها كانت عليها ستائر. إذن لا شيء. إزار ونوافذ مغلقة على نساء ربما. قيل لي قبل أن أزور المدينة أنهن ـ أي النساء ـ يختفين وراء الجدران والثياب، ولكنهن يفعلن في الفراش ما لا تستطيع زوجة الشيطان أن تفعله. شيء جميل ورائع أن يعيش الإنسان ازدواجية من هذا النوع. كل حياة

الإنسان ازدواجية، والذي لا يعيشها هو الأحمق. مأساة تتكرر باستمرار. ولماذا لا أقول ملهاة. وطبيعة الحياة مأساة وملهاة في نفس الوقت. إنها ازدواجية إذن. شممت الهواء النقي القادم من جهة البحر. السماء من وراء النافذة تبدو زرقاء صافية وشاسعة. البنايات القصيرة لا تحجبها عن عيني. سماء رحبة تدعو إلى التلاشي فيها والتحليق داخلها مثلما تفعل تلك السحب الصغيرة البيضاء. ومرة أخرى، لا شيء إذن، أو هو كل شيء. سماء وأزبال ونوافذ مغلقة. عدت من النافذة ودليتُ رأسي تحت الصنبور. كان الماء بارداً منعشاً. عندما جففت شعر رأسي، أخرجت من الجرب النقود التي كنت قد حشوتها في مكان ما منه. فتحت حزامي ودسست بعض الورقات المالية في جيب المايوه، بينما وضعت الباقي في جيب السروال. إنه الجوع! منذ أمس لم آكل، وعندما توقفت سيارة النقل مراراً ونزل الناس ليشتروا لحماً وخبزاً، لم أتشجع لأن أفعل مثلهم خفت أن يكون اللحم لحم نعجة عجوز فأصاب بإسهال طيلة يومين أو ثلاثة. حصل لي هذا مراراً. وحصل هذا أيضاً للناس مراراً. أغلقت الباب ونزلت الدرج. وجدتها جالسة قبالة المستخدم وهي تضع رأسها بين كفيها. عندما رأتني قفزت من مكانها:

ـ هل نمت جيّداً؟

كان المستخدم ينظر إليها بطرف عينه وهو يتسلم المفتاح مني. قلت لها:

ـ نعم. نمت جيداً. كان هناك هدوء تام. حلمت أحلاماً لم أتذكرها.

ـ أنا أيضاً أحلم كثيراً في هذا الفندق. لا يحصل لي هذا عادة.

ـ من أي مدينة أنت؟

ـ أنا أشتغل أستاذة للرياضة بإحدى الثانويات في الدار البيضاء. وأنت؟ يبدو أنك فنان. هل ترسم؟ هل تمثل؟

ـ لا هذا ولا ذاك. أنا أيضاً مدرس.

ـ غريب. شكلك لا يوحي بذلك. ولماذا تترك شعرك طويلاً بهذا الشكل؟

ـ آه. شعري... تلك مسألة أخرى. كثير من الناس يتركون شعورهم تطول. هذا غير مهم. هل تعرفين مكاناً آكل فيه؟ إني جائع. منذ أمس لم آكل شيئاً.

ـ يبدو عليك أنك لا تأكل جيداً. أنت هزيل. الطعام مهم بالنسبة للجسد. يجب أن تأكل خصوصاً إذا كنت تتعاطى الحشيش. هل تتحشش؟

ـ نعم أحياناً. لكن لست مدمناً.

ـ وإذن فعليك أن تأكل جيداً.

كان بضعة أشخاص جالسين في البهو. رجل بجلابته فضل أن يجلس على إحدى الدرجات وقد حسر جلابته حتى الركبتين، وظهرت ساقاه المشعتان، في حين انحسر سرواله البلدي، وكون بالوناً بين فخذيه. كان ينظر فيما حوله ببلادة تامة، توحي بها نظراته العديمة التركيز، التي تنتقل من هنا إلى هناك من الكرسي إلى البشر إلى السقف، وكأنما يدخل فندقاً لأول مرة. وعندما

غادرنا الفندق كانت الفتاة تنظر بنوع من التحدي للمستخدم، لم يعرها أدنى اهتمام وقالت الفتاة:

ـ ماذا تريد أن تأكل؟ هناك مطاعم كثيرة. السردين المشوي، السندويشات.

ـ أريد صحناً من السقط. أو من قوائم البقر.

ـ ره. هناك مطاعم شعبية كثيرة. لكنها بعيدة قليلاً.

اخترقنا العديد من الأزقة الضيقة، التي كان يتجوّل فيها هيبيون وهيبيات. بعضهم كان يجلس أرضاً أو في إحدى الزوايا. وبعضهم كان يأكل بنهم أمام تلك الدكاكين الصغيرة سندويشات لا أدري مما تتكون. وقالت الفتاة:

ـ اسمي فاطمة... فاطمة الحجوجي. ما رأيك في هذا الإسم؟

ـ اسم رائع.

ـ لكنه اسم عادي. لا يشبه الأسماء التي توجد في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية وأنت؟ ما اسمك؟

ـ علي. وأعتقد أن البقية لا تهمك.

ـ آه. صحيح. غير مهم. الأسماء غير مهمة. إلا أنها تميز. أنواع البطاطس مثلاً. أنواع الطماطم. أنواع البطيخ. الناس مثل البطاطس والطماطم والبطيخ. يجب أن نطلق عليهم أسماء لكي نميزهم عن بعضهم. ومع ذلك فالأمر ليس بذي أهمية. ها قد وصلنا. تلك الأقواس هناك. كلها مطاعم مختصة في بيع وجبات السقط وقوائم البقر والغنم والرؤوس المبخرة على

الطريقة الصويرية، إنهم يهيئون كذلك طواجين بطريقتهم الخاصة. لا تشبه الطريقة التي تهيء بها الطواجين.

كان الوقت حوالي الساعة السادسة بعد الظهر. والشمس تميل نحو الغرب. لكن النهار لا يزال واضحاً. والناس لا يبدو عليهم إطلاقاً الإنهاك اليومي. كانت المطاعم متجاورة. ليست مطاعم بمعنى الكلمة ولكنها أبواب كبيرة مفتوحة على ثلاثة جدران وسقف. تجولنا حواليها، ودخلنا من بعض الأزقة التي تدور حول نفسها مثل متاهة، في جدرانها كوات، تعرض بشراً وطواجين وخبزاً وكفتة من لحم الجمل. قالت فاطمة:

- أنا أعرفهم جيداً، إنهم قذرون ويغشون. لقد أصبت مرة بمرض في معدتي ألزمني الفراش أسبوعاً ظللت أتقيأ من فوق ومن تحت. ربما لا تعرف شيئاً عن نوع هذه المأكولات.

ومع ذلك كان الناس يلتهمون، وكان الهيبيون أيضاً يأكلون بأظافرهم وأنوفهم وأحناكهم وشعورهم... قلتُ لفاطمة:

- انظري الناس يأكلون. لا يهمهم كل ما تقولينه.

- لديهم مناعة. أنا لست مثلهم. إذا كنت تريد أن تأكل أي شيء فكُلْ. لا أحد يمنعك. أردتُ أن أدلك على طعام لا يضرك.

وهي تقول ذلك، توقفت أمام مطعم، كان فيه ثلاثة من البدو، رجل في زاوية، وجهة إلى الحائط وهو يلتهم شيئاً. بينما الإثنان الآخران، كانا يأكلان من إناء واحد فوق الحصير. دخلنا إلى المطعم، بعد أن ألقت نظرة على الصحن الكبير المعروض في الباب، والمعرض للغبار. قالت «إن صاحب المطعم معلم

ويُتقن مهنته لا تخف من طعامه. رجل نظيف، يغسل يديه كل مرة ولا يكاد يفارق الصنوبر» جلسنا على الحصير. نظر إلينا البدويان بحذر وخوف، ثم استأنفا تناول ما بين أيديهما. وكان أحدهما يدخل أصابع يده اليمنى في فمه كاملة، وعندما يخرجها تحدث صوتاً بشعاً. قال المعلم صاحب المطعم:

ـ واحداً أم اثنين؟

أجابت فاطمة:

ـ واحداً من تحت.

ـ المحل محلك. أنت تعرفين كل شيء. منذ مدة لم تأتني بهيبيين. هل غضبت مني؟

ـ لم أغضب منك. حاشا. إنهم يفضلون أن يأكلوا شيئاً آخر، أو ليست معهم فلوس. أنت تعرف أنهم يقضون هنا أياماً قليلة ثم يسافرون.

ـ أعرف. لكن بعضهم يعود مرة أو مرّتين في السنة.

الحصير باهت اللون، بعض الأماكن منه فيها مزق. الأواني عند الباب، وفي إحدى الزوايا كرتونة كبيرة كومت فيها أشياء، وحولها شيء يشبه المعطف أو اللحاف. لا شك أن المعلم ينام هنا، وإذا لم يكن هو، فهناك شخص أو أشخاص آخرون. ذهبت لأغسل يدي. كل شيء قذر. صببت الماء ومسحت يدي في بنطلوني لأن الفوطة المعلقة لم تغسل منذ أيام ربما. كانت تنبعث منها رائحة وعلقت بها ألوان كثيرة ومختلفة، من السواد إلى الصفرة، إلى ألوان أخرى لا إسم لها.

جاء المعلم ووضع الصحن أمام فاطمة بعد أن فرش تحته جريدة. قال وهو يمسح يده في خرقة الثوب التي كان يحيط بها نصفه الأسفل:

ـ بالصحة والراحة. إنه عجل صغير.

التهمت الصحن كله، ولم تذق منه فاطمة سوى قطعة صغيرة، وظلت تدخن، وتطفئ سجائرها على التوالي بجوانب الصحن الذي آكل منه، ثم تضع الأعقاب وتكومها على الجريدة. عندما انتهيت، قامت هي بتكميش الجريدة والأعقاب ووضعتها في الصحن.

قال المعلم:

ـ لماذا لا تزوريننا؟ تعالى حتى ولو لم يكن معك فلوس. نحن مسلمون، والمسلم هو الذي يأخذ بيد أخيه المسلم.

ـ إن شاء الله. أنا لا أحب دائماً أكل قوائم البقر.

قال وهو يضحك:

ـ لأنك لست جائعة. هناك بعض الحمالين يأتون منذ سنوات إلى هنا، يأكلون هذا الطعام في الغذاء والعشاء. وإذا رأيتهم فهم أقوياء مثل البغال. إذا جئت دائماً إلى هنا فإنك لن تزوري الطبيب أبداً. إنهم يأكلون هذا ويدخنون الحشيش بكثرة، ومع ذلك فهم أقوياء. شيء واحد يهددهم هو السل. إن ذلك يفعله الكيف. أنا أيضاً أدخن. لكنهم يدخنونه بكثرة.

ناولته سيجارة أمريكية. أخذها منها مسروراً ووضعها عند أذنه. دفعت له الدرهم. وغادرنا المحل. عبرنا ساحة كبيرة

واسعة كان فيها أناس أمام أكوام من القمح والشعير والذرة وحبوب وقطاني أخرى. بعضهم يكيل، والبعض الآخر يتشمس في الغروب آخر أشعة الشمس، والبعض الآخر ألقى الباش فوق سلعته ونام قربها. الناس يعبرون في كل الإتجاهات، والمشترون قليلون جداً. قالت فاطمة وهي تشير إلى أكوام الحبوب:

ـ المغرب بخير. الزرع في كل مكان. ووجبة الطعام بدرهم واحد. أليس كذلك؟

ـ نعم نعم.

ـ لا أحد يمكنه أن يموت جوعاً. السجائر المهربة متوفرة، والحشيش في كل مكان.

ـ نعم نعم.

ـ الحياة جميلة جداً.

ـ نعم. أعرف.

ـ لماذا تقول دائماً نعم؟

ـ لأن ما تقولينه صحيح.

ـ آه. خفت أن تكون تسخر مني.

ـ حاشا. ليس من عادتي أن أسخر من أحد. الحياة جميلة، وحتى لو أكلنا قبل قليل على حصير مثقوب.

ـ ماذا تقول؟

لا شيء، لا شيء...

اجتزنا الساحة، وخرجنا من قوس أدّى بنا جهة البحر.

ولاحظت أن النساء كاللقالق على السور، وذاهبات في كل اتجاه. عدد الرجال كان قليلاً، يمكن أن تكون هذه هي طريقة استقبال المساء في المدينة. نساء قرب البحر ورجال في أمكان معينة. أحسست أن فاطمة تدخل ذراعها تحت ذراعي. استسلمت لذلك ونحن نسير وسط هذا الزحام قرب البحر. لا شك أن آخرين يفعلون مثلنا وسط هذا الزحام. كل شيء ممكن إذن.

(2)

طلبت شاياً أسود وانحشرت وسط مجموعة من الهيبيين على مقعد طويل، بعضهم فضل أن يجلس على الأرض، وبعضهم تمدد فوق الحصر عند الجدران وكانت بعض الأبواب مفتوحة وتطلّ على باحة المقهى. أبواب الغرف كانت مكاتب محكمة قبل أن تتحول إلى مقهى وفندق. بعض الهيبيين والهيبيات يطلون أيضاً من الطابق العلوي. موسيقى البوب تنبعث متحشرجة وزاعقة أيضاً. قالت الفتاة التي بجانبي:

- هل تسمح؟

- تفضلي.

قلت ذلك ولم أدر ما الذي كانت تريده. وافقت فقط. هذا عالم لا أعرفه، ربما كان مخالفاً تماماً لعالم طنجة أو مراكش. امتدت يد الفتاة التي كانت تعلق الودع على شعرها وتحيط ذراعها بجلد ثعبان، إلى كأس الشاي، ورشفت منه. لم تكن تشعر بأية عقدة. بعد ذلك رأيت أنهم يفعلون ذلك هنا حتى بدون استئذان. أخذنا نتعاقب على ارتشاف الكأس. ناولته لفتاة كانت تجلس على الأرض على بعد عدة أقدام منها. لكن الفتاة رفضت وقالت:

ـ شكراً. أريد أن أشرب طونيك.

أعادت كأس الشاي إلى الطاولة ودفعته جهتي ثم قالت:

ـ هل أنت مسافر أم مقيم؟

ـ إنني لم أصل إلا أمس.

ـ الجنوب رائع. لقد زرنا تارودانت وطانطان إنهما مدينتان جميلتان كل شيء هناك أصيل. كنا نفضل الذهاب إلى الأسواق.

كانت الموسيقى ما تزال تنبعث متحشرجة، والذكور والإناث يدخلون ويخرجون منتعلين أو حفاة. وقف شاب طويل القامة أمامنا. شعره منسدل تحت كتفيه. كان له أنف سيرانو. أفردت له الفتاة مكاناً بالقرب منها. وقدمته لي:

ـ مكسيم. خطيبي.

لم أثر انتباهه كثيراً ولكنه طلب زجاجة سيفن آب. العرق يتصبب من جبينه. مدّ له الشخص الذي كان بجانبه شيلوماً محشواً بالكيف. كور كفيه ودخن وهو ينظر إلى الأعلى. أعاد الشيلوم إلى نفس الشخص لكنه اقترح عليه أن يمرره إلى خطيبته. تناولته ولم تدخن. . . قدمته لي. كورت كفي وفعلت مثل مكسيم. كان الشيلوم مصنوعاً من قرن ماعز. وقد تدلى منه خيطان أحمر وأخضر. أحسست أن كمية المخدر التي دخنت تتجول مباشرة في رئتي. أعدت للفتاة الشيلوم وشربت جرعة من كأس الشاي الذي برد تماماً الآن. كان شاياً أسود بالنعناع تكون في قعر الكأس. النعناع يملأ نصف الكأس تقريباً. وعندما أعادت الفتاة الشيلوم إلى خطيبها التفت إلي:

ـ أنا لا أحبّ أن أُدخن. لقد جربت ذلك لكنه لم يعجبني.

ـ التجربة أساسية. وهي تولد العادة.

ـ ماذا تقول؟ لا أفهم. مكسيم استمع إليه. إنه يقول كلاماً لا أفهمه.

انتبه مكسيم إلينا بعد أن ردّ الشيلوم إلى الطرف الآخر:

ـ آه. ماذا تقولان؟

ـ إنني لا أفهمه.

ـ قلت إن العادة قبيحة. يتعود المرء شيئاً ثم يصبح أسيراً له. بمعنى أنه لا يمكن له الفكاك منه. عادات مثل حب الوطن، الجنس، التدخين.

كان مكسيم ينظر إلينا بذهول، وتحت تأثير الكيف لم يكن يتحدث. ولكنه كان يستمع إليّ. هذرت الفتاة قائلة:

ـ لا أفهم ما يقول. لكن يبدو أنه يتحدث في شيء مثل الفلفسة. قال مكسيم:

ـ دعيه يتحدث. أشياء جميلة وغريبة لا يتحدث فيها كل الناس. آه. استمر في حديثك عن العادة. نحن جميعاً نتعود أيّ شيء. صحيح ما تقوله. وربما تعودنا حتى على طريقتك في الحديث. أليس كذلك يا . . . ما اسمك؟ آه. علي. كلكم تسمون عليًا هنا. أنا أعمل مصوراً لإحدى الصحف. وأنت، ماذا تعمل؟

ـ مدرس.

ـ مهنة ممتازة. هل تتقاضى راتباً مناسباً؟

ـ ليس تماماً.

ـ مؤسف حقاً. يجب الإعتناء بالمدرسين والأساتذة. أعرف أساتذة في فرنسا يعيشون أوضاعاً مثل التي تحدثت عنها. أحمد الله لأنني لم أصبح أستاذاً مثلك. وهذا المعزى أيضاً تشتغل بالتدريس. أبوها بقال، أصله من جبال البرانس.

قلت لمكيم:

ـ اسمح لي أريد أن أطلب كأساً أخرى من الشاي.

أشرت للجرسون، فتأخر في المجيء. جاءت فتاة حافية ترتدي ثوباً مغربياً رخيصاً وقذراً. لكن ساقيها كانتا تلمعان تحت وهج ضوء النهار، نظيفتين ومكتنزتين. وقالت للشاب الذي دار دورتين حول نفسه:

ـ يمكن أن تجلس.

ـ شكراً.

جلسا على البلاط، وأخذ الشاب يفتش عن شيء في جرابه. رأيت فاطمة تدخل تذكرت:

مزقوا جيب فتاتهم

لم يبالوا حرمة الرجلة

كان النهدان مختفيين تقريباً. الصدر شبه أملط. إنها رجل، رجلة. عيناها تتيهان في كل مكان. رأتني وجاءت لتحشر نفسها إلى جانبي.

ـ أنت هنا.

ـ نعم.

ـ بحثت عنك كثيراً. وسألت عنك في الفندق.

ـ الفندق للنوم فقط. رائع أن يكتشف الإنسان عوالم أخرى. هذا مكسيم وبريجيت.

أخذ مكسيم ينظر إليها وعيناه مثقلتان بالحشيش. كان يتأملها بنظرات ثاقبة. تناول شيلوماً آخر ودسه تحت أنفه الطويل. انتقل الشيلوم على الفور إلى فاطمة. بعد ذلك قالت:

ـ حشيش رائع.

لم تكن تبدو مرتبكة، بل لم تكن من هذا العالم... كان عندي شعور بأنها لا تحص بالعالم حولها. وقفت وذهبت لتسلم على شخص ذي شعر طويل ربطه من الخلف بشريط أصفر فاقع. عادت لتقول: ـ إنه إيطالي. مسكين. سرقوه، وهو ينوي إتمام رحلته إلى مجاهل إفريقيا، يقول إنه ليس معه فلوس، ولكنه مصر على هذه الرحلة.

ـ كذاب.

ـ لا تقل هذا. كلهم هكذا. ليس معهم سنتيم واحد، ولكنهم يسافرون ولا أدري كيف، بعد شهر أو شهرين يبعثون لك بكارت بوسطال من مكان ما من العالم.

ـ أعرف. لكن ليس من غابات إفريقيا.

ـ آه. هذا شيء آخر.

كان الجرسون ذو العضلات القوية يمسك الآن بشاب نحيف. يشتمه بالإنجليزية. الفيل والنملة. الثور والذبابة. لكن هذه المرة لم تستطع الذبابة أن تهزم الثور، تحلق حولهما أربعة أو خمسة أشخاص، في حين كان الباقون في أماكنهم ينظرون ببرود لما يجري. عندما دفع أحد الأشخاص ثمن ما شربت

النملة، قال الفيل بالعربية، وهو يوجه حديثه إلى العجوز صاحب المقهى بصوت مرتفع:

- إنه دائماً يفعل ذلك. يشرب ويهرب. دعني أكسر عظامه. أنا أعرف الهيبيين كثيراً. أشار العجوز بيده وتمتم بهدوء ووقار.

قالت فاطمة:

- لقد سمعت أن هذا العجوز كان عطاراً. ولقد أصبح الآن غنياً في مدينة الصويرة، بعد أن حول هذه البناية إلى مقهى وفندق.

- بينه وبين القبر شبر.

- ومع ذلك فهو لا يرحم. قيل أنه تزوج فتاة عمرها ستة عشر سنة، جلبوها له من شيشاوة.

- هذا أمر لا يفاجئني.

- أتمنى لو كنت زوجته. لعرفت كيف أسحق إليتيْه...

- أنت مدرسة ولا يصلح لك مثل ذلك الشبح.

- كلنا سوف نصبح أشباحاً. أنت شبح، وهذه شبح وهذا وذاك وتلك...

كانت تشير بأصابعها منفعلة. قال مكسيم:

- ماذا تقول؟

- Nous sommes des spectres...

- Elle a raison...

وقلت هذا أحمق مثلي ومثلها. ظل ذلك الشاب يرتعد خوفاً من الفيل. ثم بعد ذلك، غادر المقهى، وكانت الموسيقى دائماً زاعقة ومتحشرجة، والحفاة والمتعلون يدخلون ويخرجون.

(3)

في ذلك المساء. تصورت أن العالم مقبرة متحركة. كان الناس في الشارع الضيق يدبون كالدود فوق جثة كبيرة عفنة هي الأرض. يتحدثوّن يعبسون ويضحكون. وطبعاً كان هناك منهم من يكيد للآخر. في مكان آخر من هذه الأرض، وفي شارع آخر، هناك بالتأكيد رجال يقتلون بعضهم، وآخرون يبتزون ضعافاً بالقوة أو بالحيلة. اللعبة التي تتكرر عبر العصور، والتي تأخذ طابع الجديّة. وما أصعب أن يكتب المرء بضمير المتكلم، لأن في ذلك رعباً للذات ورعباً للقارئ الذي يظل يبحث عن شيء في العديد من الكتب دون أن يعثر عليه طيلة حياته حتى يزور المقابر، بعد أن ألهاهُ التكاثر. عوداً على بدء:

توقفت فاطمة التي كانت تتحدث إلى مكسيم وصديقته وهم يبتعدون عني بمسافة أربعة أشخاص.

ـ فيم تفكر؟ لماذا لا تشاركنا الحديث؟

ـ كنت أفكر في أشياء كثيرة.

ـ فلنتحدث فيها جميعاً. ربما كانت مشاكل نحلها جميعاً.

ـ إنها ليست مشاكل جماعية حتى نحلها جميعاً.

ـ لا أفهمك. ولكن لا بأس، إنهما يقترحان أن نأخذ زجاجتي نبيذ وأن نذهب معهما إلى غرفتهما في الفندق. وأنا اقترحت أن نشتري أولاً سردينا مشوياً.

ـ كما تشائين. يبدو أن مكيم رجل ذكي.

ـ هذا مما لا شك فيه.

مشينا عبر الدروب الضيقة. الازدحام كثيف. نساء كثيرات ملفوفات في أثواب بيض ولا تظهر منهن سوى الأذرع البضة والعيون المكحَّلة وهناك من يرتدين لباساً أوربياً. لكنهن في الغالب مراهقات وتلميذات. قالت فاطمة إنها تعرف يهودياً واحداً يبيع الخمر في المدينة. وكانت الخمور يسمح بيعها في ثلاثة بارات وفندق، لكن الحوانيت التي كانت تبيعها في السابق أغلقت بأمر من السلطة المحلية، أو سحبت منها رخص بيع الخمور.

وأضافت:

ـ إن كل هؤلاء النساء الملفوفات في الأثواب زانيات. كل نساء الصويرة زانيات مثل خنيفرة.

ـ ماذا تقولين؟

ـ كما تسمع.

ـ لا أسمع شيئاً. لا تقولي هذا لمكيم حتى لا يضحك منا.

ـ ولماذا لا أقول له ذلك؟ فالتي ترقص لا تغطي وجهها.

غير أنها لم تقل له. وكانت تضرب بعض أحجار الطريق،

تقذفها بدون عنف. نادت عليهما وقالت «مِن هناك» ثم كنا أمام دكان وطيء، بابه بني اللون ملتصق بالجدار الأبيض الحديث الطلاء. قالت لمكيم مرة أخرى:

ـ اذهب وحدك. إنه لا يبيع للمسلمين. إذا رآنا معك فلن يبيعك خمراً. يبيع فقط للأجانب ولرجال الشرطة.

ـ بلد غريب. أنا لا أفهم شيئاً. رأيت المسلمين يشربون في البارات. ما الفرق بين البار والبقال؟

ـ أوه لا تحاول أن تفهم إذا كنت تريد أن تشرب.

ـ مجرد سؤال. أنا لا أتحدث في السياسة. أعرف أنه ممنوع عليكم الحديث في السياسة. ولكني أتحدث في أمور عادية مثل الأكل والشرب والنوم. حتى هذا لا يمكن أن تتحدثوا فيه.

قالت فاطمة:

ـ هنا، يجب أن تأكل وتشرب وتسكت... أقصد أن تشرب ماءاً لاخمراً.

ـ ولكنهم يشربون خمراً.

ـ أنت لا تفهم شيئاً. الخمرة ممنوعة على المسلمين.

ـ ولكنكم تشربونها. ورأيت ذلك بنفسي في كل المدن المغربية.

ـ سوف أشرح لك ذلك فيما بعد.

قلت وأنا أشعل سيجارة:

ـ اشتر ثلاث زجاجات أو أربعاً. سوف تفهم كل شيء فيما بعد.

ـ الحشيش ممنوع عندنا وأنتم تتناولونه بكل حرية في الأزقة والشوارع والمقاهي، ما الفرق إذن؟ الحشيش أخطر من الخمر.

ـ سوف تفهم. إني أحس برغبة في الشرب. يمكن أن تذهب الآن إلى اليهودي.

ـ سوف أذهب عند اليهودي. أعرف أن اليهود يدسون أنفسهم في كل شيء، حتى في ثلوج القطب الشمالي. إنني من عائلة يهودية تنصرت منذ قرن. ذهب مكسيم واختفى في ظلام الحانوت. قالت بريجيت:

ـ إنه يحب الشراب. لكنه لم يشرب كثيراً في المغرب. لو رأيتما كيف أنه يعبّ الخمر عبًّا عندما نكون هناك.

ـ في فرنسا؟

ـ إي نعم. في فرنسا. إنه يحب البوردلي، يشبه في ذلك والدي إلا أن والدي كان يبالغ كثيراً. فهو يشرب بسرعة ليسكر بسرعة...

كانت الشوايات مصطفة فوق رصيف الميناء، وإزاءها مقاعد طويلة جلس عليها مغاربة وهيبيون أجانب يتحدثون لغات مختلفة ويلتهمون السردين الساخن بعد أن يعصروا فوقه قطع الليمون. منهم من فضل الجلوس على الأرض قرب بركة مائية تفوح منها رائحة السردين وتطير حولها ذبابات ذات طنين رتيب. كان مكسيم يتأبط كيساً بلاستيكياً وهو شارد وراءنا، لم يكن يبدو عليه عياء أو شيء آخر. قالت فاطمة:

ـ إن الناس يفضلون أكل السردين ساخناً، من النار للبطن.

من البحر إلى النار إلى البطن. عندما يبرد يفقد شيئاً من مذاقه.

قالت بريجيت:

ـ نأكل قليلاً. ونأخذ معنا الباقي إلى الفندق.

ـ فكرة جيدة.

قررت ذلك الفتاتان. ولم يكن أمامنا نحن الرجلين سوى الإذعان. كانت الشباك هناك على بعد أمتار مبسوطة فوق الرصيف، وكانت المراكب وكان البحر وكانت الجزيرة وكان الأفق، وكان عالم آخر وراء الأفق، أمريكا. ربما كان أيضاً هناك أناس آخرون على الشاطئ المقابل من الشرق الأمريكي يتناولون أيضاً سرديناً، ويفكرون فينا في نفس اللحظة. يفكرون أن العالم ضيق وأن ما يفصلنا عنهم سوى مجرى مائي. كانت الأسماك تلمع تحت أشعة الشمس وهي تفرغ في الصناديق أمامنا. أما فواكه البحر الأخرى المشهية فكانت تجمع بعناية مثل سرطان البحر والجمبري والمحار. وكان الناس متجمعين حول الرصيف واقفين أو جالسين ينظرون إلى عملية نقل الأسماك من المراكب، أو ربما يتاجرون لا أدري. رائحة السردين المشوي تنبعث من كل مكان، والناس يلتهمونه بنهم ولذة. الهيبيون لم يكونوا يفضلون أكله بالخبز. الشواؤون يعرفون ذلك جيداً، ولذلك فحصتهم من الخبز كانت تحوَّل إلى المغاربة.

أكلنا وأخذنا معنا سرديناً، وبالرغم من أن فاطمة كانت تنصحني بعدم تناول الفلفل، فقد أكلت واحدة ولا أزال أتصبب لحد الآن عرقاً. شعرت هي بذلك وقالت:

ـ ألم أقل لك؟ إنك تخرب معدتك وصحتك.

ـ لكنه يفتح الشهية.

ـ خير لك أن تأكل في الوقت الذي تشعر فيه بالجوع.

ـ في المرة القادمة سوف أفعَل ذلك.

ـ هل تمزح؟

ـ لا والله. الإنسان لا يمكنه أن يمزح مع مثيلاتك.

ـ وما الفرق؟

ـ أنت تعرفينه.

وقال مكسيم وهو يضحك:

ـ هل تتشاجران؟

ـ لا. إنها تعطيني محاضرة عن الفلفل.

ـ آه. جميل. النساء يمكنهم أن يحاضرن في كل شيء حتى عن الفلفل. هذه المعزى التي خلفنا هي الأخرى تعطيني محاضرات أحياناً بالرغم من أنها لا تتقن الحديث. ولكن عندما يأتي وقت المحاضرة ينطلق لسانها، غير أني لست طالباً أو مستمعاً جيداً.

سمعته يتحدث عنها بصوت مرتفع وهي على بعد كعب منه، ولكنها لم تقل شيئاً. لأن وقت محاضرتها لم يحن بعد. وكفت الأخرى عن الحديث عن أضرار الفلفل. ومشينا في دروب ضيقة كثيرة مثل متاهة. بعدها وصلنا إلى فندق «الراحة» الذي كان يقيم فيه مكسيم وبريجيت. كان المستخدم يغفو خلف الفاصل الخشبي وخلفه سبورة المفاتيح. استيقظ من غفوته وقال لمكسيم وهو يتثاءب:

ـ ممنوع.

ـ ماذا؟

أشار المستخدم إلى فاطمة:

ـ هذه. لا يمكنها أن تدخل مع الذكور إلى غرف الفندق.

قالت فاطمة بالعربية:

ـ ماذا تقول أيها القواد؟

اضطرب المستخدم. ولا شك أنه لم يكن ينتظر مثل هذا ردّ الفعل.

ثم استعاد ثقته بنفسه، وتوجه إليها بلين:

ـ حرام أن تقولي مثل هذا الكلام. يبدو أنك بنت أصل. وأنا أطبق تعليمات صاحب الفندق فقط.

ثم تطاول بعنقه لينظر إلى الكيس البلاستيكي الموضوع أمامه على الفاصل الخشبي:

ـ أعطوني زجاجة ولا عين رأت ولا أذن سمعت.

قالت فاطمة:

ـ والله، لا ذقته.

ـ قال مكسيم:

ـ ما الذي يجري؟

ـ إنه يريد زجاجة.

ـ بسيطة.

ابتسم المستخدم، في حين أخرج مكسيم زجاجة نبيذ وناوله إياها. انكمش المستخدم على نفسه. ضم الزجاجة إلى صدره ثم

عاد إلى جلسته الأولى فرحاً مثل طفل. لم يعد يحتج ولم يعد يطبق تعليمات صاحب الفندق ولم يعد يخشى رجال الشرطة. لا عين رأت ولا أذن سمعت. ثم صعدنا الدرجات باتجاه الغرفة. جرت بريجيت الستارة القديمة الحمراء. وضع مكسيم الزجاجات على الطاولة الصغيرة التي يوجد بمحاذاتها كرسيّ عتيق وحوض ماء وصنبور وقطعة من مرآة ملتصقة بالجدار.

قال مكسيم:

ـ يجب أن نأخذ راحتنا. تعال معي يا علي، فلنضع هذه الحشية أرضاً.

قفزت فاطمة:

ـ دعه. لا أعتقد أنه يستطيع أن يحمل هذه الحشية معك.

أمسكت بزاويتي الحشية، وأمسك مكسيم بالطرفين الآخرين. أمسكت أنا من الوسط، ثم وضعنا الحشية على الأرض. كانت بريجيت تنظر إلى كل ذلك باندهاش وخوف من شيء ما. تربعنا ثلاثتنا فوق الحشية، في حين فضلت بريجيت أن تجلس على الكرسي. وضعت فاطمة السردينات المشوية الملوية في جريدة على الأرض وناولت بريجيت الكأس الوحيدة التي كانت موضوعة على الحوض تحت قطعة المرآة وهي تقول:

ـ أنا لا أريد أن أشرب سوى كأس واحدة. أفضل أن أدخن إذا كان مع فاطمة قليل من الحشيش.

قالت فاطمة:

ـ معي قطعة صغيرة تحشش قبيلة. لكن تعالي لتجلسي معنا. لا تبقي معلقة هناك مثل اللقلاق.

ـ أفضل أن أبقى جالسة الآن هنا.

ـ كما تشائين.

أزال مكيم سدادة الزجاجة بأظافره وصب لنفسه جرعة. قال هو يتلمظ:

ـ إنه جيد.

ـ لكنه من النوع العادي.

ـ لكنه مع ذلك.

أخرجت فاطمة قطعة الحشيش الملفوفة في ورقة. فتحت الورقة وأخذت تحرق أطراف قطعة الحشيش. مارست طقسها بالكامل وأخذت تتبادل التدخين مع بريجيت ومكيم. فضلت أنا ألا أُدخن.

وقال مكيم:

ـ لماذا لا تدخن؟

ـ إنه لا يوافقني مع الشراب. ربما تقيأت وأصبت بوجع في الرأس.

ـ أنت تعرف نفسك.

كيف أعرف نفسي؟ من منا يعرف نفسه حقاً؟ كثيراً ما كنت أتوهم أنني أعرف نفسي. أعرف بعض العادات والأهواء المزمنة المتحكمة فيّ. لكن سرعان ما تتوالد تلك الأشياء في داخلي، وتنتج عنها عادات أخرى وأهواء أخرى أتعجب من صدورها مني كما لو كانت تصدر من شخص آخر.

ـ أعرف نفسي! إنها نكتة.

قال مكسيم وهو يمدّ لي الكأس:

ـ ماذا تقول؟

ـ لا شيء. قلت فقط إنني أعرف نفسي حقاً.

ـ رائع أن يعرف الإنسان نفسه.

ـ لا تلق بنفسك أبداً إلى ما يسوؤك.

وقفت بريجيت وذهبت تبحث في جراب ملقى في الزاوية عن ترانزستور. شغلته فأحدث حشرجة، ثم انبعثت منه موسيقى. عالجت الزر فارتفعت الموسيقى طلب منها مكسيم أن تخفض الصوت ففعلت على الفور.

وقال لها:

ـ أنت دائماً تتصرفين مثل صبية يا عنزة السيد سيغان. لا أعرف ماذا تفعلين مع تلاميذك في الفصل.

نظرت إليه بخوف. وظهر نوع من الألم على ملامح وجهها. رأيت بعض الدموع تترقرق في عينيها.

ـ أنت دائماً تظلمني يا مكسيم. ماذا أفعل لك؟

ـ إنك مثل عجينة. كوني مثل فاطمة. دخّني حشيشاً واسكتي.

عندما وضعت الترانزستور على الطاولة، جاءت وقبلته. جلست بالقرب منه وشعر هو بنوع من الحرج ربما. لا أدري. ذلك ما فكرت فيه. فاطمة لم تكن تنتبه لما يدور حولها. بل كانت تستمتع بتدخين الحشيش. اتكأت بمرفقيها على الحشية بعد أن ناولت السيجارة المحشوة لبريجيت، ثم مدت ساقيها فوق

البلاط وأخذت تتأمل السقف وهي تحرك جزءاً من جسدها على إيقاع الموسيقى. وعندما تتابعت القطع الموسيقية دون أن يتدخل المذيع أو المنشط. قالت بريجيت:

- موسيقى رائعة. لا شك أنها إذاعة جبل طارق.

قلت:

- لا... يمكن أن تكون إحدى المحطات الإسبانية أو إذاعة الرباط الدولية فإذاعة جبل طارق لا تلتقط سوى في شمال المغرب.

- آه، فهمت، لم أكن أعرف ذلك. هل تلتقطون إذاعة فرنسا الدولية هنا؟

قال مكسيم بعد أن أفرغ الكأس كله في جوفه:

- اسكتي يا عنزة السيد سيغان. ألم أقل لك مراراً أنك جاهلة.

- إنني أريد أن أعرف فقط يا مكسيم. أنت لا تريدني أن أعرف أبداً. تريد أن تعرف في مكاني.

- ماذا تقولين؟

- لا شيء يا حبيبي.

التفت مكسيم إليّ:

- اسمع ماذا تقول:

- دعها تقول ما تشاء. من الأفضل أن ندع المرء يقول ما يشاء حتى في السياسة والمعتقدات الدينية. لأنه بدون ذلك لا يمكن أن ندرك الحقيقة.

ـ لكن الحقيقة لا يمكن إدراكها بالثرثرة الفارغة. كثير من الناس ثرثروا عبر التاريخ لكنهم لم يضعوا أصبعهم على الجرح.

ـ لا يهم. هذا موضوع آخر. افرغ لي كأساً ودع بريجيت تثرثر. نحن اليوم في غرفة مظلمة وفي واضحة النهار. والحقيقة ضائعة هنا في هذه الغرفة. وقفت فاطمة، مدّت ذراعيها كجناحي نسر في فضاء الغرفة، أخذت ترقص. كانت كمن تحلق في سماء صافية، سمعت طرقات على الباب، طرقات خفيفة. مدت يدها إلى المقبض. أطل رأس مستخدم الفندق:

ـ هل تريدون حشيشاً جيداً وبثمن ملائم؟

قالت فاطمة:

ـ لا. شكراً. مدت له عقب السيجارة التي كانت محشوة تناوله وهو يبتسم.

ـ أنا فقط جئت لأؤكد لكم أنني أحبكم. وأنني لن أخونكم. إذا أردتم حشيشاً جيداً فهو موجود.

ـ قالت فاطمة:

ـ لا. لا. شكراً ثم إنهم لا يدخنون. أنا وحدي أدخن.

انصرف المستخدم. واستمرت فاطمة في الرقص وهي تقول:

ـ حمار! وقف مكيم حافياً وأخذ يرقص مع فاطمة في حين بدأت بريجيت تنشغل بحشو سيجارة أخرى تناولتها من العلبة الموضوعة فوق الحشية. وكان المذيع ما يزال غائباً والموسيقى تتوالى من الترانزستور. أفرغت لي كأساً وشعرت أن تغيّراً يحدث

على جسدي. شيء كالنمل في تلافيف مخي، آفاق واسعة تتفتح أمامي تتسع الغرفة وتحلق فاطمة في فضائها. تتسع النافذة كذلك. أشم هواء رائعاً يدخل منها. هذا هو المجد في الحياة، المجد اليومي، والآن، لم يعد مكسيم مبتعداً عن فاطمة ولكنه التصق بها عندما تغيرت القطعة الموسيقية. أخذا يرقصان ملتصقين كعشيقين فُرِّقَ بينهما منذ سنوات. بعد لحظات عادا ليجلسا على الحشية. لم يكن يبدو عليهما أي نوع من التعب. وكانت بريجيت قد أشعلت سيجارتها المشحوة بالحشيش. دخنت بعمق، وهي تحرك رأسها بدون عنف على إيقاعات الترانزستور. تناول مكسيم السيجارة، ثم قدمها إلى فاطمة بعد أن دخَّن منها. حاولت فاطمة أن تغريني لكن رفضت، وجرعت ما تبقى من الكأس دفعة واحدة، ثم ملأتها لمكسيم. قال؛

ـ شكراً.

شعت عيناه ببريق حاد. وعكست طلاء الغرفة، ثم سمعته يردد كلمات من الأغنية الإنجليزية. قال لفاطمة:

ـ هل سبق لك أن زرت فرنسا؟

ـ لا.

ـ إنك تتحدثين الفرنسية بطلاقة.

ـ طبعاً لأنني درستها في المدرسة.

ـ أقصد أنك تتكلمين مثل فرنسية بدون لكنة.

ـ لا أدري.

ـ علي، يتحدثها بلكنة. إنه يتحدث مثل الأوكسيتان عندنا.

ثم توجه إلى بريجيت:

ـ اذهبي وارقصي مع علي أيتها العنزة.

لكن العنزة كانت تتأمل في السقف ولم تعره أي اهتمام. فتحت القميص على صدرها، وبرز جزء من نهديها بدون حمالتين. كانت معتدلة. لا سمينة ولا هزيلة. مثل فاطمة تماماً. إلا أن فاطمة كانت أطول قامة منها، وأكثر ميلاً إلى الذكورة مع شعر مقصوص. تناولت بريجيت السيجارة منها وقبل أن تدخن بعمق قالت كلمات مهموسة لم يسمعها أحد.

وقفت وأخذت تتلوى في الغرفة بهدوء وليونة. عاد المستخدم ليعرض بضاعة مرة أخرى. ردّته فاطمة بكلمات مؤدبة هذه المرة. كان يبتسم بمكر. وقال مكسيم:

ـ يبدو أن هذا البغل قد سكر.

ـ وتحشش أيضاً.

ـ ألا يوجد في هذا الفندق غيرنا؟

ـ لا، هذا غير ممكن.

قال ذلك وهو يضحك. جذب إليه فاطمة فاتكأت على صدره برغبة كبيرة. أخذ يمرر أصابعه في شعرها القصير. رأيتها تغمض عينيها على صدره. وكانت بريجيت تقوم بحركات واهنة وثقيلة في الغرفة تحاول أن تقلد راقصة شرقية. استرخى مكسيم على ظهره، فتمددت فاطمة فوقه. أخذت منه الكأس وملأتها لنفسي. دخنت سيجارتين دفعة واحدة وبانفعال شديد. نادت علي بريجيت فذهبت لأرقص معها رقصاً شرقيّاً. كانت مبتعدة

عني وهي تحرك يديها في فضاء الغرفة بتثقال. أمسكت بيدي وبعد أن أدارتني فوق البلاط تخلت عني وذهبت لتقوم ببعض الحركات الغريبة أمام الجدار. عدت إلى مكاني لأفرغ من الزجاجة الأخرى في حين كانت يد مكيم تفتش عن شيء في جسد فاطمة. إنه المجد البشري اليومي إذن. وقفت وأشعلت الضوء لأطرد عتمة المساء. كنت أتلذذ بشرب الكأس وأنا أنظر إلى ما يجري في الغرفة. وأحياناً أتذكر بعض الصور من ماضي، لكنها سرعان ما تختفي. ألقت بريجيت بقميصها فى إحدى الزوايا. واستمرت في جنونها. ودائماً بتثاقل. كانت تغمض عينها وترفع يديها إلى الأعلى وتفرد أصابعها في الهواء. جاءت في الأخير وجلست بين فخذيّ:

- علي، هل سكرت؟

- لم أسكر بعد.

- ظاهر أنك لم تسكر.

مدت ذراعها فوق كتفي. كان نهدها يلامس صدري. وكانت حرارة قوية تنبعث من نصف جسدها الأعلى. إنه النداء الأبدي.

(4)

منذ ثلاثة أيام لم أنم بما فيه الكفاية. السهر موجود هنا في كل مكان. تلتقي أشخاصاً في كل الأماكن، يتحدثون إليك بسهولة، بتلقائية كبيرة، وبدون خوف. منهم من يقتسم معك السندويش، ومنهم من يقتسم معك زجاجة الليمونادة أو كأس الشاي. منهم أيضاً من يعرض عليك السفر إلى الجنوب أو إلى الشمال بدون مقابل. السيارات كثيرة تظهر في هذا اليوم لتختفي في اليوم الآخر. كان يعجبني أن أتمشى بدون هدف، أنتقل من هذا الدرب لذاك، الهيبيون في كل مكان. الهيبيون يسكنون فنادق رخيصة أو بيوتاً ضيقة ومظلمة في الغالب، هنا أو هناك في درب أهل أكادير، في درب الملاح القديم، في بني عنتر، في الحدادة؛ في صانديو. إنهم مثل الفئران، تخرج لتقتيات ثم تعود إلى الجحور. ألم ألتق بفاطمة طيلة هذه الأيام الثلاثة، ويبدو أنها سافرت إلى مكان آخر. لا أدري. كل ما أدريه أنني بعد تلك الليلة عدتُ وحيداً ومنهكاً وسكران في غبش الصبح إلى الفندق. وظللت نائماً حتى المساء. وقد حاولت أن أتقيأ بدون جدوى. كنت أتجشأ فقط رائحة النبيذ الرخيص والسردين والسجائر. وما

كنت أتوجس منه وقعت فيه. وعندما استيقظت لم تكن لدي أية رغبة في الأكل إطلاقاً. كان الوقت وقت الغروب وأنا لا أحبه. إنه يذكرني بنهاية الكون. كل شيء يرقد لتستأنف المهزلة. المهزلة الكبرى العظيمة. السيرك الكبير حيث تجتمع الطبائع التي تكرر نفسها عبر التاريخ، الحب، الحقد، العدل، الظلم، النفاق، السرقة، المعاملة الحسنة المغلفة بنوايا خلفية قد تكون صادقة أولاً. والآن، هو المساء مرة أخرى. كل شيء حدث اليوم لكني كنت غائباً عنه. وفي الوائع، حتى لو كنت مستيقظاً فإني في أغلب الأحيان أكون غائباً. كم من الأشياء تحصل لكنها تتكرر في هذا الزمن أو ذاك. هذا هو المساء. وهذه نهاية أشياء بالنسبة لهم، وبداية أشياء بالنسبة لي. ولكن بدونهم، لن تكون هذه الأشياء هي أشيائي. فهم الذين يشعرونني بأنها لي. إنها لعبة جميلة وقديمة. جزء من المهزلة الكبرى، جزء من المهلة، جزء من السيرك. وكان علي أن أتقمص دوراً في هذا السيرك. أنا لا أعرف الدب ولا أعرف الأسد ولا أعرف النمر. أعرف جيداً الحمار والبغل. ولكن بما أن الناس يحتقرونهما. فإني فضلت أن أكون ثعلباً هذا المساء، خصوصاً وأن القطيع قد أنهك طيلة اليوم كله. وما أكثر ما قرأت عن أحابيل الثعلب في الكتب المدرسية وما أكثر ما سمعتُ عنه وأنا صغير. كان القطيع يسير جماعات جماعات في الأزقة الضيقة، وبعض النعاج المصابة بجرب كانت تجر أقدامها وحيدة قرب الجدران، وهي تمضغ همومها اليومية، وتفكر في همومها القادمة وكيف ستجد حلاً لمشاكلها، ومن يدري فقد يداهمها الموت ليضع حداً لكل شيء. فهموم النعاج

لا تنتهي أبداً. ما أن تنتهي واحدة حتى تبدأ الأخرى، وحتى لو لم تكن لك القوة القادرة العليا والخفية لها يد في خلق هذه الهموم، إن النعاج تخلقها لنفسها ولغيرها. ورأفة بهؤلاء النعاج، التي لم تأخذ درساً من نهاية وانقراض القطعان السابقة، عبر سنوات خلتْ، فإن تلك القوة القادرة العليا والخفية، خلقت شيئاً اسمه الموت. إنه الحكمة الصادقة. الدرس الأزلي، الذي لا زال يُلقَّنُ لكل النعاج لكن دون جدوى. وها هي الآن تسير من حولي بعد أن قضمت عشب غيرها اليومي، دون أن تشعر بذرة واحدة من الندم. وتذكرت قول الشاعر العربي: «إنما العاجزُ مَنْ لا يسْتبد». ومع ذلك، فقد أصررت على أن أبقى ثعلباً هذا المساء وألا ألعب دور النعجة. لكن لا أحد منهم انتبه إلى خطمي أو إلى ذيلي، وأنني في أية لحظة يمكن أن أفترس واحداً منهم. لكنهم دائماً يظلون في غفلة مطأطئي الرؤوس أو رافيعها. يمشون بين الأزقة جماعات جماعات في بطء، وقليل منهم من كان يُهَرْول. كانوا يتلامسون بالمناكب. وكانت أعناق بعضهم تشرئب لتلامس أعناق آخرين. إنه المساء!

ووجدت نفسي في حي تغارت. هنا الفضاء الفسيح، وهنا البحر الممتد، والجزيرة التي تبدو كصخرة وسط البحر. اشتعلت الأضواء العمومية في حي تغارت الآن. ومن الجزيرة المهجورة يظهر ضوء خافت، قد يكون لسكارى أو لصيادين، دبة فضلت أن تنعزل عن القطيع. لا بأس! هذا أيضاً شيء جميل. الإستثناء الذي يحطم القاعدة. مشيت باتجاه البحر، ودخلت إلى مقهى «الشاليه» وطلبت بيرة باردة كان الشاليه قفصاً في سيرك، تآلفت

فيه أصناف من الحيوانات تتآلف في اللحظة الراهنة، ولكنها ربما غيرت من طبيعتها في لحظات أخرى قادمة. جلست في زاوية الكونطوار وكنت أشرب بيرتي برغبة قوية، وليس من الضروري أن أصف كل شيء داخل هذا القفص، ولكن هذا لا يمنعُني من أن أقول إن ثرثرة هادئة مشوبة بنوع من الخوف والحذر، هي التي كانت تسود المكان، ربما لأن الزبائن كانوا يشعرون بأنهم في حالة تلبس، فمرسوم «الخمر ممنوع بيعها للمسلمين» ما يزال معلقاً أمامهم منذ عهد الإستعمار. وهذه الحيوانات فضلت أن تنعزل أيضاً عن القطيع، مثلما فعلت دببة الجزيرة. ذلك مجرد تصور! ومثلما يتصور القطيع عشبه وعشب غيره، وكيف يسطو عليه، فإن من حقي أن أتصور دببة في الجزيرة، اختارت لنفسها طريقة عيش مغايرة. وبالرغم من أنني ثعلب، وأعرف مسبقاً أن الدب في الجزيرة خير من حيات القطيع، فالدببة وهذه الحيوانات المختلفة في الشاليه تأنف من أكل النعاج. هذا سلوك حسن. ولماذا لا يحدث ذلك، ولأول مرة، طيلة هذا الزمن الذي ظل فيه القوي يفترس الضعيف. النعاج غبية وبليدة. كانت كذلك عبر العصور، ولندعها إذن بعيدة تتمشى نحو الحظيرة، فهي بعد قليل سوف تنام لتخرج إلى المرعى غداً وبعد غد. هذا غير مهم. وعليَّ أن أخفي ذيلي، فربما استرجعت حيوانات قفص السيرك هذه طبيعتها الأصلية، وعرفت بأنني ثعلب، أنا لست ثعلباً، أنا مجرد حيوان مثلهم، في هذه اللحظة. وما سوف يحصل فهو حاصل. انتهينا.

- بيرة أخرى من فضلك.

ـ نعم؟

ـ بيرة.

ـ باردة مثل هذه؟

ـ نعم.

ـ هات بيرة باردة.

قالها ولم يلتفت إلى النادل. كانت البيرة أمامي. مثلجة ومشهية. أعرف أن الغازات تضرُّ بي، لكن لا بأس. فلأشرب وليكن ما يكون تذكرت أحد البحارة الإسبان في إحدى حانات الدار البيضاء. كان يعب البيرة تلو الأخرى وهو يغمس قطع الخبز في صحن من الصلصة الحارقة. خمّن أنني أتعجب منه. التفت إليَّ. وجهه وأوداجه حمراء، العرق يتصبب منه. قال وهو يبتسم:

ـ تتعجب مني لأني آكل بمثل هذه الشهية...

ـ لا يا سيدي. أنا شارد الذهن فقط. انظر إلى هنا أو إلى هناك.

ـ عندك مشاكل.

ـ ممكن.

ـ دع المشاكل وراءك واشرب، فلك الساعة التي أنت فيها. سأحكي لك شيئاً. أنا بحار. وعندي أملاك. أحمد الله والمسيح والعذراء. ليس هذا هو بيت القصيد. ولكن، قبل أكثر من عشر سنوات، أصبت بمرض لا أدري ما هو. زرت الأطباء. كلهم أصروا على أن أكف عن أشياء اعتدتها مثل شرب القهوة

والتدخين (أنا لا أدخن) واكف عن شرب البيرة وتناول الفلفل الحارق، وإذا لم أفعل ذلك، فإني سأموت بعد ستة أشهر على الأكثر. كلهم كانوا يقولون ذلك. وها أنت ترى أنني أعيش لحد الآن وسوف أعيش أطول إن شاءت السيدة العذراء. الأطباء يثرثرون كثيراً. كلهم ينصحون بالكف عن شرب الشاي والقهوة والبيرة والحوامض والسجائر والمرق، وينصحون بالمشي. هل فهمت؟

ـ نعم. سيدي. إذا كان هذا يحصل عندكم. فنفس الشيء يحصل عندنا.

اختفت صورة الإسباني، وصورة الحانة في الدار البيضاء. أفرغت البيرة الثانية في جوفي وطلبت بيرة أخرى ثالثة. كنت أتفقد ذيلي فوق المقعد الطويل أمام الفاصل الخشبي. ولا شك أنني فعلت ذلك مراراً. لذلك قال لي صاحب المقهى وهو يفتح البيرة الثالثة نيابة عن النادل:

ـ إنك تتحرك كثيراً فوق التابوريه. هل أنت مصاب بالبواسير. آه! لا تحدثني عن البواسير. لقد جربت تلك الآلام. أعطيك نصيحة. سوف آتيك بقطع من الثلج اذهب إلى المرحاض وضع تلك القطع على إستك وسوف ترى النتيجة.

ـ لا لست مصاباً بالبواسير. إنه ذيلي. ذيل الثعلب.

ـ ماذا تقول؟ أنت لم تسكر بعد.

ـ أنا لم أسكر. لكني أقول ذيلي.

ـ فهمت. شيء جميل، أن تتحدث عن البواسير بهذا

الشكل، تسميها ذيلاً. وشيء جميل أن يستحي الإنسان.

ذهب صاحب المقهى، وعاد بمكعبات الثلج ووضعها في كفي بالقوة.

ـ اذهب، لا تخجل، اعْتن بصحتك. ادخل إلى المرحاض وافعل ما قلته لك.

أذعننت له وخفت أن يفتضح أمري، أن يعرف أنني ثعلب ماكر، وإذا عرف فربما يكون هو أسداً. دخلت إلى المرحاض، وألقيت بمكعبات الثلج هناك، تبولت ودخنت سيجارة. بعد ذلك عدت إلى مكاني. قال صاحب المقهى:

ـ بماذا تحس الآن؟

ـ الألم بدأ يختفي.

ـ ألم أقل لك؟ سل المجرب ولا تسل الطبيب، والآن سوف تشرب واحدة على حسابي.

وضع بيرة أخرى أمامي. الليل في الخارج. سيد كل الكائنات، كائنات نصف الكرة الأرضية، في الوقت الذي تكون فيه الشمس سيدة النصف الثاني.

قال أحد الحيوانات بجواري:

ـ هل أنت من مراكش؟

ـ لا. أنا من الدار البيضاء.

ـ ولماذا حالتك قذرة بهذا الشكل. فتش لك عن عمل واترك الهيبيين والهيبيات. لماذا تفعل مثلهم. احلق شعرك وتعال لتشتغل معنا صياداً. كثير من شبان الصويرة أصبحوا حمقى لأنهم

يظلون ويبيتون يتحشون ويتخدرون. اعمل عقلك. لأنك سوف تكبر ذات يوم ولن تجد أحداً يعيلك، تصبح مثل شيء مستهلك وعفن مطروح على الطريق. هل تفهمني؟

- شكراً. إني أفهمك. سأعمل بنصيحتك. المسلم الحقيقي هو الذي ينصح أخاه المسلم.

رأيته يتفرس في وجهي وينظر إلى قدمي ووراء ظهري. لمست وجهي لأتأكد من أنه ليس له خطم ثعلب. ومررت بكفي وراء المقعد لكي أتأكد من أن ذيلي ما يزال مختفياً. وعندما تأكدت من أنني أشبههم حاولتُ أن أنجو بجلدي وأغادر المقهى. وقال الحيوان:

- خذ لك بيرة حتى ندردش قليلاً.

- لا. شكراً عندي موعد.

- الله يعاونك.

غادرت المقهى. ومشيت أجوس في حي تغارت بحذر شديد. كان الحي قد بدأ يخلو من النعاج. وهناك بعض الخرفان ما تزال تنط في هذا المكان أوْ ذاك لاهية عن نفسها ولا تعرف أن ثعلباً يتجول بينها. ومن يدري فقد تكون هي الأخرى ثعالب أشد مكراً وإذاية. أما أنا فأعرف كيف أخفي مكري. وصلت إلى الكافي دو فرانس. جلست على الإفريز. وعندما جاء الجرسون طلبت كعكاً، لأنه لم يكن في إمكاني استساغة شرب أي شيء آخر بعد البيرة. كان كشك للصحف قرب المقهى، ورأيت الصحف معلقة هناك. كنت أتمنى أن أذهب لأشتري بعضها، إلا أني عدلت عن الفكر. ثم سمعت صوتاً من ورائي:

ـ إيه علي، ماذا تفعل هناك وحيداً؟

شاب من الدار البيضاء. بدون شغل، عرفته في مقهى الكوميديا كل ما أعرف عنه أنه يعيش على حساب أختيه المحترفتي البغاء، وأحياناً على حساب بعض الشاذين جنسياً من الأجانب. سبق أن التقيته أيضاً في طنجة وفي مراكش وفي كل مكان توجد فيه أوكار الشذوذ الجنسي. وقفت بدون تردد وذهبت لأجلس معه، وكان محاطاً بأربع فتيات. هززن رؤوسهن بلا مبالاة، واحدة فقط. كانت تنظر إلي بنوع من الترحاب. قالت:

ـ هيلو. يمكنك أن تجلس. شعرك الطويل هذا جميل. إذا غسلته فسوف يكون أجمل.

هززت رأسي، وقال عبده وهو يحرك كل جسده فوق المقعد وذراعيه الطويلتين. قال بالعربية:

ـ إنك محظوظ. بنت الكلبة لم تبادلني ولو كلمة. تعرفت عليهن هذا الصباح.

قالت بفرنسية ركيكة:

ـ ولماذا لا تشرب شيئاً؟

ـ شربت بيرة قبل لحظات.

ـ آه. أنا لا أحب الكحول. والداي في جمعية لمحاربة الكحول في السويد.

كانت الساحة توشك أن تخلو من المغاربة. وكانت أفواج من الهيبيين تعبر الساحة، حفاة أو منتعلين. وفي مواجهة المقهى سيارات تحمل أرقاماً وعلامات لدول مختلفة، لم تكن سيارات

فخمة أو حديثة، ولكنها من النوع الذي يصمد في وجه الطرقات كيفما كانت. أنهيت الكعك وأشعلت سيجارة. صوت التيلفزيون في الداخل يصلني زاعقاً. كنت أسمع بعض الكلمات المصرية دون أن ألتقط جملة واحدة. لا شك أنه ممثل مصري يتحدث عن الحب أو عن سيرة الرسول أو مشاهير التاريخ في الإسلام، هذه هي المواضيع المفضلة لدى عرب المشرق، أو على الأقل، هذا ما يعرضه تلفزيون الرباط. كان عبده يحاول أن يثير انتباه الفتيات بأية طريقة يتحدث بالفرنسية تارة. وبلكنة شبيهة بلكنة الباريسيين، ثم أحياناً ينطق بعض الجمل بالإنجليزية. وكانت الإبتسامة لا تفارقهن. قالت السويدية:

- إنك لا تتحدث كثيراً. يبدو أنك تعاني من شيء ما. أنت حزين جداً.

- صحيح. إنني حزين لأنني لا أملك نقوداً. لقد سرقوها مني. (هذا ما قاله الثعلب. ولم أقله أنا. ولو فتشتني لبصقت في وجهي).

- هذه الكلبة لا تشبه كل اللواتي عرفتهن هنا. إنها حمقاء. جميلة جداً. ألا ترى ذلك؟ وهي معجبة بشخص يسكن في كوخ قرب الديابات يظل يخرف عليها في أمور الدين.

- وماذا يفعل في ذلك الكوخ؟

- إنه مجرد أُمي. يتسول في جامع الفنا في مراكش ثم يعود إلى ذلك الكوخ ويوهم الحمقاوات مثل هذه بأنه نبيّ. عليك أن تأخذها منه. أنت أجدر منه بها.

- إنها جميلة بالفعل. ويبدو أنها غير عادية.

ـ حمقاء. ما أكثر الحمقى هنا في الصويرة.

ـ إنهم ليسوا حمقى. لو كانوا كذلك لما جابوا العالم كله، وبدون فلس في الجيب إنهم أذكياء. تربيتهم تختلف عنا.

ـ ربما كان كلامك صحيحاً. أنت أستاذ وتعرف أفضل مني في هذه الأشياء.

كان يتحدث وهو لا يزال يحرك كل جسده. وكانت ذراعاه الطويلتان النحيلتان تنوبان عنه أحياناً في الحديث. وقالت واحدة:

ـ عبده. ستذهب معنا إلى قرية الذيابات.

ـ طبعاً. كل مساء هناك حفلات في الهواء الطلق.

ـ نعرف ذلك.

توجه إليَّ عبده:

ـ هل زرت قرية الذيابات؟

ـ لا لكني أسمع عنها.

ـ إنها قرية للصيادين. كل الهيبيين يسكنون هناك وبأثمان رخيصة. يمكن أن تكتري كوخاً. وسوف تكون حراً في كوخك. ذلك أفضل من الفنادق هنا. إني أعرف أصحاب الفنادق زيادة على تحرشات البوليس. في الذيابات حتى رجال الدرك يتحششون هناك معنا طمعاً في واحدة من الهيبيات. لكنهن ينفرن منهم. ما رأيت دركياً قط استطاع أن يحصل على واحدة.

مرت كروسة في الساحة، وفوقها جوق شعبي وأكياس من السكر والدقيق. كان الجوق يعزف ورجل في ثوب امرأة يدير

عجيزته فوق الكروسة. لم يكن هناك إلا أناس قليلون حول الكروسة يصفقون بأيديهم. عدد الأطفال أيضاً كان قليلاً. ففي مناسبة مثل هذه يكثر الأطفال، لكن الآباء يفضلون في مثل هذه الساعة إغلاق الأبواب دون أبنائهم.

جاء الجرسون ودفع كل واحد ثمن ما استهلك، وقفنا جميعاً. التصقت بي. كانت داخل ثوب فضفاض وملون، وبدت لي مثل غجرية، أو أنها ليست بشراً. أي شيء إلا أن تكون بشراً. ويمكن للخيال أن يختار أي كائن هي، ما دام للخيال إمكانية أن يتصور ما يريد.

- طبعاً. ستذهب معنا إلى الذيابات. هل زرتها سابقاً؟

- لا.

- إنها قرية جميلة. لكني أفضل مكاناً بالقرب منها اسمه «النبع». هناك يسكن رجل اسمه عمر، له علاقة حميمة مع الله. إنه يتكلم معه كما فعل مع موسى، ألا ترى أن ذلك شيء رائع؟

- أكثر من رائع. أريد أن أرى ذلك الرجل.

- هذه الليلة غير ممكن. ربما أتيحت الفرصة في وقت لاحق. ثم يمكن أن يكون موجوداً في مراكش الآن. إنه يتغيب أحياناً، ثلاثة أو أربعة أيام في الأسبوع. وأحياناً أكثر. هل تعرف هذا الشاب الذي معنا؟

- ليس كثيراً.

- أنا لا أستريح له.

- شاب بئيس ومسكين.

ـ وأكثر يبدو عليه أنه كذاب.

ـ لا أدري.

ـ هذا مجرد تخمين. تفضل، فلنركب معهن السيارة. أنا لا أملك سيارة بالرغم من أني لست فقيرة.

انحشرنا في الخلف. والتصقت بي مرة أخرى. كانت دافئة وتنبعث منها رائحة خاصة. لحمها كان طرياً مشهياً. شعرت بذلك فاقشعر جسمي. تحطمت كل الحواجز التي تفصل الإنسان عن الإنسان. النداء الأبدي الذي يطاردنا ما دمنا على قيد الحياة. حتى ولو حاولنا الهروب منه فإنه يطاردنا. ارتفعت ذراعي بدون إرادة مني. لفت عنقها وشعرها. استسلمت وأرخت رأسها على كتفي. وكان عبده ما يزال يهرج، ولم أكن أفهم ما يقول، لأني كنت أحلم بشيء آخر. وكانت أصواتهن ترتفع وتختلط والسيارة قد اجتازت حي تغارت باتجاه طريق مدينة أكادير. قالت بصوت خافت:

ـ اسمي سلمى.

ـ سلمى لاجرلوف.

ـ آه. تعرف، هي الكاتبة. الحائزة على جائزة نوبل. إنها من بلادي. كان عندي حدس أنك تعرف كل شيء. لم يخطئ حدسي. ولا يمكنه أن يخطئ أبداً. هل قرأت لها؟

ـ نعم.

ـ ماذا قرأت لها؟

ـ ما عدت أذكر.

ـ هل قرأت لكتاب آخرين من السويد؟

ـ نعم. لكني لا أتذكر أسماءهم. أتذكر سلمى لأن العرب يسمون نفس الإسم.

ـ آه! صحيح.

ـ نعم.

انحرفت السيارة إلى طريق ترابي بين الأشجار المتزاحمة. تسير السيارة بصعوبة فائقة. كانت الحفر كثيرة، ورأس سلمى يضربني تحت الذقن. سمعت طقطقة أسناني فعدلت جلستها. لكنها ظلت دائماً تملك نفس الطراوة. كان جسمها ما يزال يلتصق دافئاً ناعماً داخل ذلك الثوب الرقيق، ومايني يزداد حرارة تنتقل إلى جسدي بين ثانية وأخرى. الأشجار فقط على الجانبين، متراصة ومتلاصقة يكشفها ضوء السيارة. امتدت يد إلينا بسيجارة محشوة، دخنت بلذة هذه المرة وقدمت السيجارة إلى سلمى. دخّنت بعمق كذلك وأعادت العقب إلى واحدة منهن. وبعد فترة قصيرة، كنا قد وصلنا إلى قرية الذيابات على شاطئ البحر. بنايات قصيرة رابضة تحت الظلام. قفز عبده، وفعلنا جميعاً مثله. كان صوت عزف يتردد صداه في سكون الليل، والبحر تلمع بعض موجاته وراء الأشجار. قالت واحدة:

ـ هل نذهب إلى بيت الدانماركية أم عند هؤلاء؟ الدانماركية تستقبل دائماً أناسا جدداً.

وعندما قالت: «عند هؤلاء» أشارت إلى بناية قديمة معزولة ثمل قلعة كانت على بعد أمتار منا. ومن هذه القلة كان العزف ينتشر في فضاء الليل. مشينا نحو القلعة دون أن يكلف أحد نفسه

الإجابة عن سؤالها. كنت في المؤخرة. وكانت سلمى ملتصقة بي. ولم أنتبه إلى أنها كانت حافية القدمين إلا بعد أن ارتطمت قدمها بحجر ربما فصرخت. كنا أمام بوابة كبيرة. نزلنا درجات سلم حجري. ومشينا في الظلام. أزقة ضيقة في جانبيها بنايات لم أعرف فيم إذا كانت بيوتاً للسكنى أم دكاكين. ولم يكن هناك أي آدمي في هذه الأزقة. اقتربنا من العزف. وبدأت أسمع أصواتاً آدمية تختلط مع صوت الدعدوع. بلغنا ساحة تجمع فيها كثير من الهيبيين والهيبيات. كانت الساحة دائرية، وفي وسطها نار تلتهم بعض أغصان الشجر وجذوعه. وهذه النار هي التي أضاءت المكان.

قالت لي سلمى:

ـ نجلس. هنا أفضل. أنا لا أحب الزحام.

وافقت دون أن أقول كلمة. جلست على التراب. فعلت مثلها، في حين جلست الأخريات بعيداً عنا قليلاً، ووراء الحلقة المستديرة حول النار. وفكرت: «لا شك أن الإنسان البدائي كان يفعل مثل هذا. هذه الأشياء كلها مجتمعة الآن: الماء والهواء والنار والتراب الذي أجلس عليه». أخذت سلمى تحرك رأسها على نغمات الدعدوع. وشعرها يغطي وجهها وهو يتطاير. لكنها كفت عن ذلك وفضلت أن تلتصق بي. كنت أنظر إلى هذا العالم الغريب من حولي. كان بعضهم نائماً، وكان هناك من يرقص أو يرفع صوته بلغة لا أفهمها. وهناك أكثر من زوجين ملتصقين ببعضهما دون أن يثيرا اهتمام الآخرين. تمددت سلمى على ظهرها ووضعت رأسها على فخذي. لم يعجبني هذا الوضع.

كنت أتمنى لو فعلت أنا ذلك مكانها. أو لفعلنا مثل الآخرين. أدخلت كفي بين نهديها. شعرت بأحماس معين فتلوت فوق التراب. استرخيت أنا على ظهري. زحفت هي، حتى أصبحت وجهها مقابلاً لوجهي. ضممتها إلي. صرنا اثنين في واحد. لكن رجلاً ذا عضلات وقف أمامنا كان في يده سطل. مدّ لنا السطل. قال لي:

ـ لا شك أنك من الدار البيضاء. أنا من مراكش. اسمي مصطفى. مرحباً بك. كيف استطعت أن تحصل على هذه.

ـ هل تعرفونها جميعاً؟

ـ ومن لا يعرف هذه الحمقاء. لكنها جميلة. كم أتمنى لو أنها أحبتني. إنها ليست مثل الأخريات. خذ بيدك. كل قليلاً من المعجون فهو يساعد على إيقاظ الهمة.

أدخلت سلمى يدها في السطل ونقلت لقمة من المعجون إلى فمها.

قالت:

ـ المعجون يعجبني كثيراً. وأنت؟

ـ أنا أيضاً.

فعلت مثلها. انتقل الرجل ذو العضلات بسطله إلى أشخاص آخرين. كان لساني يبحث عن بقايا المعجون داخل فمي. شيء لذيذ الطعم. استعذبت كثيراً مذاقه. نظرت إلى النار وإلى الجموع من حولي وإلى الظلال المعكوسة على الجدران التي بهت بياضها: الجميع جالسون، لكن هناك ثلاثة أشخاص

يتخطون الرؤوس ولا أدري ما الذي كانوا يفعلونه أو يقولونه. هذه الطقوس لا أعرفها. وباستثناء العزف كان كل شيء عادياً إلا جمال بعض النساء. فضلت أن أسترخي على ظهري وأتأمل النجوم ما دامت أنثى جميلة بالقرب مني. فعلت سلمى نفس الشيء. كنت أحس أنها ما زالت تمضغ شيئاً.

ـ لذيذ أليس كذلك. قلت.

ـ رائع، رائع جداً. أنا أحبه كثيراً. هو أفضل من L.S.D. أنا لا أحب تلك الأشياء الإصطناعية. أحب ما هو طبيعي. ثم إني لست مدمنة على تناول المخدرات.

ـ أنا مثلك. لكني أحب أحياناً أن أشرب.

ـ عندي شعور بأن الإنسان يمكنه أن يتخلص من المخدرات لكنه لا يستطيع التخلص من الإدمان على الخمور.

ـ الخمر لا يمكن أن يتخلص منها الإنسان. إنها مثل الجنس والهواء والماء والطعام.

ـ ما كنت أعرف هذا. ألم أقل لك قبل لحظة إنك تعرف أشياء كثيرة. ومع ذلك فأنا لن أشربها.

الإيقاعات تنتشر دائماً في الفضاء. توقف قصير أحياناً. ثم يستأنف الضرب على الدعدوع وترتفع الأصوات لتخفت. ما عدنا نهتم لذلك، عندما مررت بأصابعي على جفني سلمى. لقد أغمضت عينيها. بالتأكيد أنها لم تنم. أنا أيضاً شعرت بثقل أجفاني. وبدأت النجوم تتراقص أمامي في السماء. وبدأ السواد يتحول إلى ألوان قزحية ففضلت أن أغمض عيني وأترك لأصابعي

تفعل ما تشاء في جسد سلمى. كانت هادئة ودافئة وشهية وحكيمة وممتلئة وطرية وحالمة وأشياء أخرى والباقي من عندك. ثم فتحت عيني على أشعة الشمس الأولى. لم يكن هناك إلا حوالي عشرة أشخاص ممددين على التراب ورماد في وسط الساحة. كل زوج في واحد. وفضلت أن أفعل مثلهم. فأدخلت رأسي تحت إبط سلمى حتى لا تضايقني أشعة الشمس الأولى...

(5)

بعد أيام غادرت ذلك الفندق واكتريت بيتاً في القرية بثمن أرخص بكثير. وكلما رخصت الحياة طالت الأيام هنا. وماذا أفعل في الدار البيضاء؟ ليس عندي فيها لا الحسن ولا الحسين. كل ما عندي هناك غرفة قذرة ومرحاض ودوش وقطعة إسفنج أنام عليها وحصير وكتب متراكمة فوق الأرض. وماذا أيضاً؟ ثلاث أو أربع استاذات يحببنني كثيراً في أول الشهر، يساعدنني على تبذير تلك الحوالة البئيسة في الأيام الأولى. يا إلهي! كم يعجبهن الشراب إذا كان بالمجان. وماذا في الدار البيضاء مرة أخرى؟ هناك السهر حتى الصباح من حانة إلى أخرى مع أصدقاء. وكل ليلة تمر إلا وتقع فيها مشادات بالأيدي والأرجل والألسن. إنهم جميعاً يحاولون أن يكتبوا. والأكثر حظوة منهم في النشر، هو الذي يكون ضحية عندما يسكر الجميع. إنها سنوات الستينات. ولا أدري ما الذي ستكون عليه الأمور في السبعينات والثمانينات، هل ستنشأ أجيال أخرى مثل هذه؟ هل ستتكرر؟ طالما طرحت على نفسي هذا السؤال وأنا في القسم أمام التلاميذ. ثم ماذا سيصبح عليه هؤلاء الهيبيون والهيبيات فيما بعد؟ إذن فلنترك

الجواب للعقدين القادمين. دائماً يجب النظر إلى المستقبل. وهذا لا يفعله الناس عادة. وذلك هو سبب مشاكلهم اليومية. انظر إلى ما مضى وتأمل في ما سيكون. فلنتأمل بالرغم من أننا لا نملك اليقين. بقدر ما نقوم بتلك العملية نكون أقرب إلى وضع أنفسنا في أحجامها الحقيقية. فالذين من حولنا إما أن يضخمونا أو يخربونا. وغالباً ما ينفخون في البالون ثم يثقبونه. والعالم هنا، مختلف تماماً عن حياة القطيع. شيء واحد يتشابه فيه مع عالمهم هو السرقة. كل يوم نسمع أن باباً كسر قفله. ولم يكن هؤلاء الهيبيون هم الذين يفعلون ذلك. ولكنه القطيع الذي يتسرب من الضواحي. إنه يفرض أخلاقه على هذا العالم الهادئ المسالم. ولكني كنت أعلم أنهم لن يكسروا قفل البيت الذي اكتريت لأنهم يعرفون أني لا أملك آلة تصوير أو آلة تسجيل. والغالب أنهم يعرفون كل شيء عن أي شخص هنا. قال لي أحد الشبان الذين يتاجرون في المخدرات:

- إنهم ليسوا صويريين حقيقيين هؤلاء الذين يفعلون ذلك. كلهم يأتون من القرى المجاورة. أما الذين تراهم هنا لا يهمُّهم سوى الحشيش والنساء. فكثير من الصويريين تعرفوا على أوربيات أو أمريكيات ورحلوا معهن دون أن يعودوا إلى مدينتهم. الله أراد لهم ذلك. فهذه مدينة لا توجد فيها معامل ولا أي شيء. لقد لاحظت ذلك أنت بنفسك. وحتى مهنة الصيد لا تردُّ شيئاً. أنا أربح من الحشيش أضعاف ما يمكن أن أتقاضاه لو أني خرجت مع مركب وفي موسم صيد جيد. هل فهمت؟ لكن لا يمكنني أن أسرق.

قلت له:

ـ على كل حال ليس لديّ ما يسرقونه.

ـ أنا لا أتحدث عنك. إنهم يشمون رائحة الأرانب من بعيد، من قراهم. يعرفون ما يفعلون. وقل لهم أن يتجرؤوا عليّ أنا. أستطيع أن أمزق أحشاء أحدهم. لا الموت ولا السجن يمكنهما أن يقفا في وجه شرف الإنسان.

ثم أخرج سكينه. كانت تلمع تحت وهج الشمس. سكين جزار حقاً. وأعاد السكين إلى مكانها. وتذكرت السكين في «الغريب» لكامو. وقلت إن الفرنسيين شوهونا في العالم. إذا كان أندري جيد، قد قال في كتابه «لو أن الحية لا تموت» أن للعربي شيئاً آخر، فإن كامو، حول ذلك الشيء إلى سكين في يده. كلها أشياء إذن. ولا بد للعربي من أن يكون له شيء يميزه. وليكن هذا الشيء أو ذاك. وأرجو أن يسعفك عقلك فتفهم. وليختف الشاب والسكين، فأنا في حاجة إلى أن ألقي بنفسي بين أمواج البحر. الساعة العاشرة صباحاً. كانت القرية صامتة. امرأة منحنية تفلح شيئاً هناك، وأخرى تخفي وجهها عني. لا بأس. اذهبي وامطري في مكان آخر، فأنا لست في حاجة إليك. أنا في حاجة إلى الرمل والبحر. كنت أجوس وسط الحشائش بين الأشجار. رفع حمار رأسه إلي وحدق في، استمر في التحديق، وخلفه كانت دجاجة، وخلفه كان كوخ ملتصق بشجرة. عندما اجتزتُ المكان وصلت إلى وسعة. كان فيها حوالي عشرين شخصاً عراة تماماً يتشمسون ويتحدثون، وورء الوسعة التي تحيطها الأشجار يمتد البحر. مكان جميل حقاً. لم يهتم بي أحد منهم. فعلت

مثلهم. نزعت ثيابي، وكني شعرت بإحساس غريب، عندما رأيت الهيبات العاريات يتقلبن فوق الرمل. أغمضت عيني وركضت جهة البحر. كانت الملوحة في فمي وكانت البرودة في جسدي. سبحت قليلاً، ثم عدت إلى ثيابي المكومة. تمددت على الرمل وتقلبت فيه. كان الرمل ساخناً عندما تمددت على بطني. وعندما استيقظ إيروس في داخلي انقلبت على ظهري وأنا مغمض العينين تماماً. هذا شيء لم أحلم به إطلاقاً. ولك أن تحلم به أنت بين أربعة جدران عندما تعود منهكاً من العمل اليومي. ولك أيضاً أن تظل تحلم حتى يأخذوك إلى القبر. لا أقصد إذاية أحد ولذلك أقول إن الشمس كانت حارة هذا الصباح وأن الرمل كان حاراً كذلك وأن الماء كان بارداً وأن الملح ما يزال في فمي وأني مغمض العينين الآن في وسعة بين أناس يفعلون مثلي. وكنت أسمع كذلك زقزقة بعض العصافير من حولي وبعض الهمهمات وتلاطم الأمواج. سمعت فوق رأسي:

ـ هل تشعل لي؟

فتحت عيني. كانت عارية تماماً. صورة حواء في خيال كل واحد. إنها أمنا جميعاً. (وكلنا نحترم أمهاتنا). وعلينا أن نلبي كل رغباتها حتى ندخل إلى الجنة التي أخرجتنا منها. فهي التي أخرجتنا منها أول الأمر وهي التي سوف تعيدنا إليها عندما نحترمها في آخر الأمر. أية سلطة!! دسست يدي في كومة ثيابي، وأخرجت علبة الثقاب. أشعلت لها حتى تدخلني إلى الجنة غداً يوم القيامة. رأيت نوعاً من الرضا في عينيها فسررت لذلك. لأنني على الأقل قد ضمنت جنتي. قالت:

ـ شكراً. رأيتك. في الكافي هيبي ذات مساء. ألم تتذكرني؟

ـ لا. لا أتذكر.

ـ لقد شربت من شايك.

ـ لا أتذكر.

ـ صحيح أنه لا يمكنك أن تتذكر لأنك كنت شارداً ذلك اليوم. لقد دخنا جميعاً.

شكراً مرة أخرى.

انصرفت، وانضمت إلى فتاتين أخريين وشاب كان يثرثر ويخط شيئاً في الرمل. أغمضتُ عيني. وكنت أسمع زقزقة الطيور في كل مكان على الأشجار، وكلام وضحكات. أشعة الشمس قوية تلهب جلدي. استرخاء تام ورغبة في نوم طويل عميق كالموت. وطبعاً، فأنا لست متأكداً من أن الموت نوع عميق حقاً. أم أن الروح ما إن تفارق الجسد حتى تصبح واعية بذاتها، وتخرج من حالة اللاوعي التي تعيشها هنا فوق الأرض. تزول عنها تلك الغشاوة التي استطاع الصوفيون والزهاد والأنبياء وحدهم تمزيقها في الأرض قبل أن تغادر أرواحهم الجسد. قاومت تلك الرغبة في النوم، انتفضت من فوق الرمل وركضت كالمجنون جهة البحر. وعندما ألقيت بنفسي فيه التفتت مرة أخرى لأتأكد من ألا أحد يهتم بي. بالفعل، كان الأمر كذلك. لكنها هي كانت تنظر إليّ من بعيد وتضحك. نهداها أبيضان مثل الشمع. وقفت هي الأخرى وركضت جهتي وألقت بنفسها في الماء.

t.me/libmaroc

ـ إنه رائع. ما أجمل الإستحمام بين الأشجار. هل تعرف هذا المكان؟ منذ حللنا في الصويرة ونحن نأتي إليه.

ـ أنا لا أعرفه. سمعت أن هناك من يسبح عارياً في مكان ما. لكني نزلت هنا بالصدفة.

ـ هناك مكان آخر، لكنه مزدحم.

ـ ورجال الدرك؟ ألا يضايقونكم؟

ـ ما رأيت دركياً قط هنا. عليك أن تجرب السباحة في الليل عندما تكون الليلة مقمرة هذا المكان هو الجنة بعينها. تعال معنا هذا المساء، بعد أن نتحشش عند الدانماركية.

ـ سوف أحاول أن أفعل.

غطست في الماء. ثم رأيتها تحرك ذراعيها وهي تتقدم إلى الداخل. كانت تغطس وتضرب برجليها في الفضاء، ليظهر رأسها فيما بعد.

نادت علي بعد ذلك:

ـ تعال هنا. كلما تقدمت كلما تغير ثقل الماء على الجسد.

لم أفعل. ولكني فضلت أن أترك نفسي لتلك الموجات الصغيرة تدفع بجسمي إلى الرمل فأعاود الكرة. وعندما لم ألبّ رغبتها التحقت بي وأخذت تفعل مثلي. واستطاعت بعض الموجات أن تصدم جسدينا. وفي إحدى الصدمات كانت تتشبث بخصري. وضعت كفي على كتفيها، ونزلت بكل ثقلي عليها، تخلصت مني وهي تضحك:

t.me/libmaroc

ـ هل تريد أن تغرقني؟ أنا لا أريد أن أموت ما زلت أريد أن أرى أشياء كثيرة في الحياة.

لم تكن عندي رغبة في قتلها. ربما كانت تمزح، وربما كانت تتحدث بجد. وعلى الأقل، في تلك اللحظة، لم أكن أتخيل، مجرد تخيل، قتل أحد حتى ولو كان من ألدّ أعدائي. أعرف جيداً أننا ما أكثر ما نتمنى قتل بعض الأشخاص: الأعداء السياسيين، الزوجات، الحبيبات الخائنات، الغرماء، والبشر اللؤماء. لكن بما أنها لم تكن هذا ولا ذاك، هذه أو تلك فإني لم أفكر قط في قتلها. وفي هذه اللحظة بالضبط. لم أكن قادراً على إيذاء أحد، بالرغم من أني أتصور أحياناً أن الإذاية هي مجرد رد فعل. وهكذا تتواتر ردود الأفعال فينتج عنها الشر. ورد فعلي إذن لم يكن شريراً. كنت أمزح فقط. ضحكت وغطست في الماء مرة أخرى، فعلت مثلها وفتحت عيني لكني لم أستطع الإستمرار في ذلك. فركت عيني، وظللت واقفاً أنظر إليها وهي تلعب مثل الفقمة. كانت تنادي عليّ. غير أني لم أجرؤ أن ألحق بها. غادرت الماء وجلست فوق الرمل المبتل. الأفق بعيد الأشجار ممتدة والشمس والهدوء الكامل. وعندما التحقت بي، ألقت بنفسها إلى جانبي:

ـ رائع. الماء رائع جداً. لقد تعبت.

ـ إنك تسبحين مثل سمك القرش.

ـ هل سبق أن رأيته؟ إنه يرعبني.

ـ رأيته في الصور.

t.me/libmaroc

ـ هل أكلته؟

ـ لا أدري. لا أذكر.

عارية تماماً. وكنت أحاول أن أضع يدي بين وركتي لكي أستتر. لكنها لم تفعل ذلك. شعرت بريح خفيفة تدغدغ ما بين فخذي. وفضلت أن أذهب إلى الرمل الساخن. قالت:

ـ الآن أحب أن أدخن، أشعر بلذة كبيرة عندما أدخن بعد السباحة.

ـ ليس معي حشيش.

ـ لا يهم. معنا قطعة مهمة. اشترتها كريستين أمس.

ـ هل أفطرت جيداً؟ عليك أن تأكلي قبل التدخين.

ـ إنني آكل بشهية كبيرة. لا تخشى عليّ.

مشت أمامي. كنت أتلهى بقذف بعض الصدفات جهة البحر. هذا شيء لم أتعود عليه قط. ركضت قليلاً فوق الرمل المبتل وضربت بعض الموجات بقدمي. ثم قررت أن ألتحق بها. وبالقرب من كومة ثيابي. كانت فتاة مغربية تتعرى. عرفتها اشمأزت أول الأمر لكنها بعد تردد استمرت في نزع ثيابها. لم أتحدث إليها قط. قيل لي إنها من مكناس متزوجة مطلقة وتتاجر في الحشيش. كانت نظراتها تطردني من المكان. رد الفعل. لكني لم أفعل لها شيئاً. ظهر جسدها برونزياً ومشهياً. وقلت لنفسي إنني لا أستطيع أن أفعل معها ذلك حتى ولو قتلوني. لأني ما رأيتها تبتسم قط مع مغربي. وزوجها وحده هو الذي يعرف ربما لماذا لا تبتسم في وجه المغاربة. تمددت على

الرمل الساخن بالقرب منهم دون أن أتحدث إلى أحد. كنت أرمق جسد المغربية. عانتها مثل سدرة محروقة سوداء. جسد مكتنز. لم تكن تتحرك تحت الشمس، جامدة مثل تمثال ملقى على الشاطئ. سمعت صوتاً وراء ظهري:

ـ هل تدخن؟

تناولت السيجارة، أخذت لي نفسين متتابعين ثم أعدتها لليد التي مدتها لي دون أن أنظر إلى الخلف. كنت أنظر إلى الأمام، إلى التمثال الملقى على الرمل. ولم يكن في مقدوري أن أخمن في أي شيء كانت تفكر. حاولت ولكني فشلت. ما أزال أذكر اشمئزازها من أي مغربي يحاول أن يتقرب منها في الكافي هيبيز. الغريب أنها كانت تلاطف رجال الشرطة السريين. قيل لي إنهم كلما احتاجوها أخذوها إلى المخفر. كلهم يشتهون جسدها حتى أنه صار بالنسبة لهم مبتدلاً. ولا شك أنها ستفعل نفس الشيء لو أن رجال الدرك هاجمونا الآن بين هذه الأشجار. نهضت في تلك اللحظة. كانت تمشي بكبرياء جهة البحر. ألقت بنفسها في الماء وأنا أنظر إلى كل ذلك. سمعت صوتاً من خلفي:

ـ هل أعجبتك؟ إن لها جسداً رائعاً.

ـ لا. ليست من النوع الذي يعجبني.

ـ ولكنها مع ذلك جميلة.

قال الفتى:

ـ آه لو أرادت أن تصبح صديقة لي.

ـ التحق بها. ربما لن تمانع في ذلك.

قلت ذلك، ونظرت إلى إليتيه المتدليتين في الرمل الساخن. كان يتابعها بنظراته وهي تلعب في الماء. وخيل إلي أنه لم ينبض فيه شريان واحد. وخيل إلي أيضاً أنهم خصوه منذ زمان وأنه يتحدث فقط ولا رغبة له فيها. وبالفعل قال:

ـ أنا أمزح فقط، لا أحب الجنس بدون حب.

ـ هل سبق لك أن أحببت؟

ـ نعم. وما أزال أحب واحدة ولن أحب غيرها.

ـ أنت رومانسي.

ـ ممكن. يجب أن نعطي لحياتنا نفساً مغايراً. ما كل ماي فعله الآخرون يجب أن نفعله. قلت لنفسي «هذه وجهة نظر. قد يكون معه حق». لا أستطيع أن أجزم بالطريقة التي كان يعيش بها الآخرون في الماضي. فالكتب وقصائد الغزل ربما لم تكن صادقة وهي وإن كانت تعطي صورة عن عقلية معينة سائدة في عصر معين، فقد لا تستطيع الإخبار عن النوايا الخفية المتسترة لأولئك الناس الذين ماتوا، والذين كان منهم المغرور والحالم والظالم والمظلوم والبخيل والكريم. آه! كلهم ماتوا. وما كانوا يعرفون أنهم سيموتون. . . وما أقبح أن يذكر الموت عندما تتجسد الحياة بين الأشجار، قرب البحر، في مكان خالٍ وسأعود إلى الجسد البرونزي فأقول: ها هو الآن يتخايل أمامي. إنها تمشي برزانة وثقة مثل زوجات المسؤولين الحكوميين في سوق عمومي. لم يكن ينقصها الآن سوى الثياب والخدم. وقال الفتى مرة أخرى:

ـ أجمل واحدة رأيت هنا.

قالت الفتاتان في وقت واحد:

ـ معك حق.

قلت:

ـ المسكينة. إن رجال الشرطة يحتاجونها دائماً.

ـ هل تريد هي ذلك؟

ـ لا أدري.

ـ إذا كانوا يفعلون بها ذلك مرغمة. فهذا شيء فظيع وغير إنساني، وليس من حقهم.

قال الفتى:

ـ إنهم يتشابهون في كل مكان. أنت لا تعرفين شيئاً. مرة حوكم شرطي لأنه اغتصب فتاة في نيس. عمرها ثلاثة عشرة سنة.

قالت:

ـ أي رعب! هذه وحشية.

تمددت المغربية على الرمل ووضعت قميصها على شعر عانتها. في حين ظل نهداها عاريين. لم تتكلم مع أحد. جامدة مرة أخرى مثل تمثال، ربما استغرقت في نوم دسست رأسي بين ذراعي، وأنا مغمض العينين، كانت ألوان قزحية تتراقص فيهما. فتح ترانزستور بالقرب مني. وسمعت موسيقى روك لم تكن صاخبة. ثم قالت إحدى الفتيات:

ـ هيه. انظر هناك. هل هم رعاة؟ منذ وقت وهم يتطلعون

إلينا من وراء الحشائش. رفعت رأسي. كان هناك حوالي خمسة أشخاص من البدو يضحكون وراء الحشائش في حين كان الهيبيون لا يأبهون بهم. يتشمون ويدخنون ويسبحون، لم يكن البدو يضحكون بصوت مرتفع. وكانت على وجوههم علامات الذهول والفزع. أعينهم تلمع وراء محاجرها وتدور. سمعت أحدهم يقول:

ـ إنه مسلم مثلنا، ذلك المصران ذو الشعر الطويل.

وبما أنه لم يكن هناك مغربي آخر في هذه الوسعة فقد فهمت أنني المقصود. وسمعت بدوياً آخر:

ـ ولماذا يتعرى مثلهم. لا شك أنه ليس رجلاً حقيقياً.

قال آخر:

ـ لا أعتقد. ربما يفعل ذلك لكي يحصل على واحدة منهن. وإذا فعل ذلك فهو مسلم حقيقي. أنت تعرف أننا نحن المسلمين فحول مثل الثيران.

خطر في ذهني ما يمكن أن يقع. بحكم تجارب سابقة، وبحكم عوامل أعرفها جيداً، ولا يمكن لهذا الخلق الممدد تحت الرمل أن يعرفها.

قالت واحدة:

ـ إنهم يضحكون مثل البلهاء. ألم يروا جسداً عارياً قط؟ ألم يذهبوا إلى الحمام؟ ألم يناموا مع نساء عاريات؟

قلت:

ـ لا أعرف. مجرد بدو. يستغربون من كل شيء.

ـ فليفعلوا مثلنا.

ـ تقاليدهم تمنعهم من ذلك. ولكنها لا تمنعهم من فعل ما هو فظيع.

ـ المساكين!

وعندما قالت ذلك أصبحوا عفاريت. رأيتهم يقفزون وسط الوسعة، كل واحد منهم هجم على جسد عارٍ. اختلط المكان بالرمل واللكمات التي كان يسددها الذكور لبعضهم. فضلت أن أنسحب بسرعة وأحمل ثيابي لأرتديها وسط الحشائش، ولأستر عورتي وأنجو بمؤخرتي. فهذا النوع من المسلمين يمكنه أن يفعل أي شيء حتى ولو كان مضاجعة حمار أو سمكة. فقد سمعت أنهم يفعلون ذلك في الجنوب حتى مع الضربان، ثم يأكلونه فيما بعد. تفو!. رأيت أحد البدو يسقط على الأرض بدون حراك. لقد تلقى ضرة قوية من أحد الهيبيين. كان صراخ الإناث يرتفع، تحت عراك أجساد الذكور. استطاع بعضهن أن يرتدي جزءاً من الثياب. اختفى بدويان في مكان آخر بعيد عني، في حين كان واحد يحاول أن يقاوم الركلات على وجهه دون جدوى. وكانت مجموعة من الهيبيين تتكوم فوق أحدهم. كنت أشاهد ذلك بخوف بالرغم من أني توقعته. تفرقت الجماعة المكتومة في الوسعة وهي تنظر بانذهال لما حصل. وقف آخر البدو وهو يحاول أن يهرب جهة البحر. كان الدم يسيل من عنقه. وكان يجر رجله مثل ذئب وقع في المصيدة. رأيتها عارية، واهنة، وسكين في يدها اليمنى تقطر دماً، تحت وهج الشمس. أصبت بخوف حقيقي وأنا مختبى داخل الحشائش.

تصورت أنها يمكن أن تذبحني مثله. فقد كانت نظراتها زائغة. وعندما تأكدت أن السكين التي في يدها ليست هي سكين «الغريب» وإنما هي سكين أوربية، فضلت أن أهرب. وأخذت أركض بسرعة جنونية فوق الحشائش وبين الأشجار حتى بلغت القرية...

(6)

قال المسيح: «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني» وفكرت: إن خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها، لكنها لا تتبعني، بل تتحول إلى ذئاب شرسة أحياناً. وهكذا يصبح من الضروري قتل المسيح في داخلي والتحول إلى نعجة أو ذئب أو ثعلب. وقد فعلت ذلك مراراً في الليل وفي النهار. وها هو النهار الآن، ولن يكون من دون شك مثل جميع الأيام، فكل لحظة لا تشبه أختها فكيف بالأيام؟ وواهمون أولئك الذين يعتقدون أن لحظاتهم تتشابه. لأنها إذا كانت تتشابه في الظاهر فإنها في داخل النفس البشرية تختلف بين ثانية وأخرى أو أقل من ذلك بكثير. كنت أجلس على حجرة قرب الدكان الوحيد الموجود بالقرية وكان بعض الزبائن من الهيبيين في الغالب يتوافدون عليه ليبتاعوا بعض ما هم في حاجة إليه. يلقون التحية بلغاتهم أو بإشارات. نوع من الألفة. ربما اعتادوا على ذلك في أمستردام أو كاتماندو أو في بعض الأحياء الخلفية في لندن. انتهيت من أكل السندويش علبة سردين صنع آسفي ونصف خبزة. شربت الكوكاكولا. بقيت بين يدي قطعة خبز، لففتها في ورق جريدة ووضعتها عند الجدار الذي كنت أتكئ عليه. بعض نملات كانت تتحرك وعلى الفور،

وبغريزة ما، نحو القطعة المتبقية. بعدما أكلت شعرت بأنني في حاجة إلى شيء آخر. وعبثاً حاولت أن أعرف طبيعة هذا الشيء الذي أرغب فيه. دار شريط أمامي. امرأة. كأس نبيذ. مشاجرة. شيلوم. سيجارة. سيجارة محشوة. في النهاية أخرجت علبة السجائر وأخذت أدخن بعمق. رفعت رأسي ورددت على فتاة قذرة: «هيلو!» اختفت. وهي تسير حافية على الرمل الساخن. كانت تحمل في يدها زجاجة والماس. السماء فوق البحر تبدو صافية زرقاء. أما السحب البيضاء القليلة فهي كالعهن المنفوش. صدق الله العظيم. وكان إبراهيم يجر وراءه قافلة من الهيبيين. وعندما رآني اتجه نحوي وهو يمضغ شيئاً في فمه، تأكدت فيما بعد أنه قطعة شوينغوم:

ـ أستاذ، ماذا تفعل هنا؟ ألم تنزل إلى البحر؟

ـ لقد أكلت. كان بي جوع شديد.

ـ مزيان. عليك أن تأكل كلما شعرت بجوع حتى لا تبقى نحيفاً على هذه الحالة. كان الهيبيون وراءه ينظرون إليّ في صمت. أحدهم وضع ذراعه على كتف فتاة شقراء. وانحشرت هي تحت إبطه. قبل جبهتها دون أن ينبس بكلمة. ظلوا ينظرون إليّ. قلت لإبراهيم:

ـ هل وصلوا اليوم؟

ـ لا، جاؤوا من مراكش. وقد ناموا أمس في مكان ما. منذ الصباح الباكر وأنا أبحث لهم عن مأوى ألا تأخذ البعض منهم معك؟ إنك تسكن وحدك، ويمكنهم أن يدفعوا لك ثمن الكراء. أنت مجرد أستاذ فقير ولا تتاجر في الحشيش. تلك الأجرة

البسيطة التي تتقاضاها لن تنفعك في شيء. ثم إن معرفة الرجال كنوز. من يدري قد تستفيد منهم. أعرف شخصاً تعرف على هيبة أخذته إلى لوس أنجلس وأصبح أستاذاً للدارجة المغربية هناك. تصور هذا. وأنت تبارك الله متعلم وذكي. ولو كانت لي ثقافتك لما بقيت في المغرب يقسو عليّ الصبيان منهم من أمه قوادة وأخته قحبة...

ـ هذا شيء آخر يا إبراهيم. إنني أعمل من أجل إنقاذ هذا الوطن.

ـ ومن تكون يا أستاذ؟ أنقذ نفسك أولاً. هم يبنون الفيلات والعمارات وأنت حاشي الأصبع.

ـ ابْنِ وعلّ، سرْ وخلِّ...

ـ ذاك شغلكَ.

التفت إلى المجموعة وتكلم إليهم بالفرنسية. وقفت ومشيت وسط سبعة أشخاص، أربعة ذكور وثلاث إناث. قال أحدهم:

ـ من الصعب أن يجد الإنسان مأوى هنا.

ـ حسب الظروف. الناس لا يمكثون هنا طويلاً. ثلاثة أو أربعة أيام ثم يرحلون إلى أماكن أخرى في العالم.

ـ نحن أيضاً سوف نسافر إلى فاس بعد أيام. هل تذهب معنا؟

ـ لا. أنا أفضل هذا المكان. سأبقى هنا بعض الوقت ثم أرحل إلى الدار البيضاء.

ـ الدار البيضاء كبيرة وفظيعة مثل أية مدينة أوربية.

ـ تماماً.

وصلنا إلى البيت. كان واحد منهم يتحدث الفرنسية بلكنة ظاهرة، وعلمت فيما بعد أنه ألماني، أمرد ونحيف لكنه لطيف جداً. وكان الذي لا يتحدث، ينظر إلي بريبة ولا يبتسم في وجهي. من أصل بلجيكي ويبدو أنه شاذ جنسياً، وهذا النوع طبعاً لا يخفى على أحد. وربما خرج فيما بعد إلى الغابة يتصيد بعض الرعاة. الله يستر! وعندما دخلنا وضع كل واحدة حوائجه كيفما اتفق. وأخرجتْ واحدة طبلة صغيرة وأخذت تنقر عليها. قال لي الشاب الألماني:

ـ هل سبق أن تحششت بالغطية؟

قلت وأنا أكذب نعم. وكنت أعرف أن الغيطة ألقت بالعديد من الناس في مستشفى برشيد. أدخل الشاب يده في جرابه وأخرج كمية من الأوراق اليابسة. قال:

ـ نريد أن نجربها، لكننا لا نعرف طريقة استعمالها.

ـ أمرها سهل. أنا أهيئها لكم.

ـ وهل تتحشش معنا؟

ـ طبعاً.

كانوا ينظرون إلى تلك الأوراق الذابلة بذهول. أحدهم ثبت نظارتيه أكثر فوق أرنبة أنفه وأخذ ينظر إلى تلك الأوراق بفرحة ظاهرة، مثل فرحة طفل أمام لعبة جديدة يكتشفها لأول مرة. قلت للألماني:

ـ هل معكم كامبينغ ـ جاز وإبريق؟

سمعت شاباً آخر يقول:

ـ سوزي! اذهبي إلى السيارة. هناك الكامبينغ ـ جاز وكل شيء. اختفت الفتاة. وبعد أن حدق أحد الشبان في الجدران المبنية من الطوب، وفي أرجاء الغرفة الخالية من الأثاث. قال:

ـ إنها غرفة رائعة وواسعة. هل اكتريتها بثمن مناسب؟

ـ نعم.

ـ لقد حاولنا أن نبحث عن غرفة هنا بدون جدوى. إنها اقتصادية ثم إننا سمعنا عن قرية الديابات الشيء الكثير. أقصد أنا وهيلين. الباقون تعرفنا عليهم في الطريق. طريق العالم، هذا الطريق الطويل الذي تلتقي فيه بأنواع من البشر ثم يتم الإفتراق إلى الأبد. كم هي رائعة وسخيفة هذه الحياة! أليس كذلك؟

قلت في نفسي: «هذا أحمق آخر. فلأجرب معه».

أجبته:

ـ ما تقوله معقول. النهاية هي الموت لكنهم لا يدركونها. إننا نؤنس بعضنا في طريق مظلم للوصول إلى هدف. وعندما نصل نتسامح ونتوادع كل يلقى مصيره.

ـ ولكن لماذا لا يكون الطريق مضيئاً؟

ـ لو كان مضيئاً ما احتجنا إلى مؤانسة.

أطرق ثم نظر بزاوية عينه إلى التي كانت تنقر بهدوء ورتابة على الطبلة. لم تهتم به ولا بنظراته، لم يهتم بنا الآخرون كذلك. كانوا يتحدثون ربما في أشيائهم وعن أشيائهم أو إلى أشيائهم. وعادت سوزي بالكامبينغ ـ جاز وبإبريق أزرق، اسوَدَّ

قاعة، ثم جاءت كذلك بالماء في زجاجة من البلاستيك ومربعات السكر. وكانت تلف حول عنقها خرقة حمراء، اندسّ أحد طرفيها بين نهديها، وتدلى الطرف الآخر على كتفها طويلاً. كانت الأخرى ما تزال تنقر برؤوس أصابعها على الطبلة، وكان الآخرون في عالم خاص. أما الشاب الألماني فبالتأكيد أنه لم يكن معهم في عالمهم ذاك. نظر إلي، وقال بحماس:

- هل تهيئ لنا الغيطة؟

قربت الكامينغ - جاز. ملأت الإبريق ماء ووضعته ليغلي فوق النار. الوقع، أنها أول تجربة لي لتهيئ الغيطة. فقد سمعت عن طريقة تهيئها ولم أكن متأكداً من شيء. وقال لي الثعلب: «جرب مثلما جربوا قنبلة هيروشيما، ومثلما جربت أول قنبلة. جرب مثلما جربت نوايا الشر البشرية عبر التاريخ». وقلت للثعلب، وبهدوء تام، سوف افعل. وهكذا عندما رأيت. بخاراً يتصاعد من الإبريق. ألقيت بكمشة من أوراق الغيطة داخلة. هذه المرة، لم يسجنوا أنفسهم داخل عالمهم الخاص، لكنهم أخذوا يترقبون النتيجة. سمعت سوزي:

- هل سنتناولها في كؤوس أو من الإبريق مباشرة؟ نشمها أم نشربها؟

قلت:

- لا. إنها تتناول في كؤوس مثل الشاي والقهوة. نسيت أن أقول لك ذلك.

- سوف أذهب فوراً لأحضر بعض كؤوس البلاستيك من السيارة. رفعت غطاء الإبريق. كانت الوريقات الآن تعقد لونها

وتتحرك في ذبذبات ضعيفة. وعندما تغير لون الوريقات، قال لي الثعلب: «يكفي هذا ما دمت لست متأكداً فكن حذراً. وفي كل تجربة أولى لا بد من الحذر، وعليك أن تعلم أن الراعي غالباً ما يكون وراء الحمل أو النعجة». أطفأت النار، وانتظرنا سوزي لتعود بعد قليل بكؤوس من البلاستيك. لم تتأخر كثيراً. وأمرني الثعلب أن أبدأ بنفسي فقلت أن نعم. ثم صببت قطرات في كأسي، وتوالت القطرات في كؤوس الآخرين. كان الجميع ينتظرون البادئ، ولا أحد تشجع ليغامر بنفسه أدركت ذلك، وكنت أتظاهر بثقة في النفس. وأن ما نفعله إنما هو أمر عادي وعادي جداً. وأن ما نتناوله ليس سوى نبات غير ذي مفعول يذكر، بل ربما بعث فينا المسرة، وقربهم إلى ما ينشدون من السعادة المطلقة. ولم أكن أعرف حقاً فيما إذا كانت هناك سعادة مطلقة. كان التردد بادياً عليهم جميعاً، لأن بعضهم قرب الكؤوس وأخذ يتشممها، كما يتشمم حيوان ما بعض الأطعمة قبل أن ينقض عليها. أما أنا فلم أشم كأسي، وإنما قربتها من شفتي، ورشفت بصوت مرتفع جرعة صغيرة، بكل حذر وخوف. ورأيت بعض الأيدي ما تزال تقرب الكؤوس من الأنوف والشفاه دون أن تجرؤ على شرب ما فيها. أعدت الكرة، رشفت شبه جرعة ولكن بصوت مرتفع. كنت أضحك وأفتعل مرحاً وسعادة مطلقة. في الأخير تشجع أحدهم وشرب جرعة، سئل عن مذاق ذلك فقال بدون تردد: رائع. رائع جداً. ثم أعاد الكأس إلى فمه وشرب جرعة أخرى. تعمدت دائماً أن أرتشف بصوت مرتفع. ثم فعل الآخرون مثلنا. سارت الأمور بشكلها الطبيعي. قال شاب:

ـ هذا شيء أحسن بكثير من القهوة والشاي.

أجابت واحدة:

ـ تماماً. شراب رائع. مع الأسف لم أكن أسمع شيئاً عن هذه الغيطة.

قلت بدون شعور:

ـ سوف أتفرج عليك أيتها القردة.

قالت:

ـ ماذا؟

قال الثعلب: ـ ماذا تقول؟ هل جننت؟ تكلم معها بلغتها.

قلت لها:

ـ إن الغيطة رائعة. سوف تشعرين براحة فائقة بعد قليل. سوف نحلق جميعاً في عالم خيالي بديع.

قال آخر:

ـ هل ما تقوله صحيح؟

ـ سوف ترى.

تمدد أحدهم على الحصير. لم يعد يقوى على الكلام. كان يحدق في لا شيء، هنا وهناك وبعد مرور قليل من الوقت بدأ الآخرون يفعلون مثله. ثم أخذوا ينامون الواحد تِلْو الآخر، أنا أيضاً شعرت بأن النوم بدأ يداهمني. ثقلت أجفاني. وضعت الكأس أمامي وقد رشفت منها جرعات فقط، شبه جرعات، وبصوت مرتفع. كان نوع من الدبيب يتملك كل جسدي ورأسي. وقلت: هذا ما تفعله الغيطة إذن. فهي منوم قوي. ولو شربت

كأسي لكنت نائماً الآن مثلهم. لكني لم أنم. شعرت بحالة غريبة لم آلفها عند تناول الشراب أو الحشيش أو الكيف. بقيت وحيداً في الغرفة ـ الكوخ. أهل الكهف كانوا نائمين أمامي وحولي. أصبت برعب. سمعت أحدهم يشخر شخيراً شبيهاً بصوت الخنزير. كان آخر يقول كلاماً غير مفهوم وقد انبطح على بطنه. وقفت كالملسوع. ثم دلقت كأسي بقدمي وأنا أغادر المكان جرياً. أردت أن أستنجد بالثعلب لكنه اختفى. وتعجبت كيف أنه يتخلى عني في مثل هذه الحالة. ركضت وركضت. بيوت. أشجار. تراب. صمت. أصوات. خواء. خلاء. أشجار. رمل. بحر. شمس. كنت أحس وأنا بين الأمواج كما لو كنت أجر كيساً ثقيلاً، فثيابي المبتلة ثقتل على جسدي. خبطت في الماء دون جدوى، محاولاً أن أستعيد حالتي العادية لكي أطرد هذا التنمل والاسترخاء. ثم غادرت الماء منهمكاً وألقيت بنفسي على الرمل تحت وهج الشمس. ولم أحس بمن حولي. نمت ولم أستيقظ إلا في وقت بدأت الشمس تميل فيه نحو الغروب. كانت بعض الأشباح الآدمية تتحرك بعيداً على طول الشاطئ. نظرت إلى ما حولي وأخذت أسترجع بعض الصور والخيالات التي رأيتها في نومي. لم أفلح لأنها كانت كثيرة وغريبة. شعرت بأن ثيابي ما تزال مبتلة. نفضت عنها الرمل، ومع ذلك لم أشعر بالبرودة. مشيت نحو القرية. كانت شبه مهجورة أحسست بجوع وذهبت إلى البقال. وعندما وقفت أمامه قال:

ـ ألم تحضر مهزلة هذا اليوم؟

قلت له:

ـ إن بي جوعاً. كاس ـ كروت. أي شيء. أعطني أكلاً.

ـ لا شك أنك دخنت كثيراً من الحشيش. احمد الله لأنك لست مثل أولئك المجانين. لقد خربوا القرية اليوم.

ـ من؟

ـ أولئك الهيبين الذين جاؤوا اليوم. لقد تناولوا الغيطة بدون شك. كل الناس يقولون إن ذلك لا تفعله سوى الغيطة.

ـ وإذا كانوا قد تناولوها فإن الناس عرفوا كيف يعيدونهم إلى رشدهم. حاول الهيبيون إضرام النار في بعض الأكواخ. أحدهم ركب على امرأة عجوز، انتزع منها السكين التي كانت تنظف بها فروة الماعز لتجعل منها قربة. ثم مزق الفروة بالسكين. كاد أن يقتلها ففرت لتستنجد بصهرها. لقد هربوا إلى الغابة مثل الذئاب الجائعة بعد أن أشبعهم السكان ضرباً بالعصي...

كنت أبتلع دون أن أمضغ وأنا أسمع لحكاية الغيطة هذه. لو أني شربت كأسي كلها لكان مصيري مثلهم. وقلت للثعلب: «برافوا عليك! هذا إنجاز رائع قمت به. وهكذا أريدك دائماً».

قال:

ـ اذهب تفقد حوائجك؛ واركب أول سيار بالأوطو ـ سطوب. وغادر القرية إلى الصويرة، واشرب لك زجاجة نبيذ هناك ولا تحشش هذه الليلة، فربما كانت العاقبة سيئة. واحرص على أن تسمع خرافك صوتك.

قلت: «فكرة جيدة». ثم نفحت البقال ثمن ما أكلت وغادرت المكان.

(7)

كانت فاطمة قد اختفت عني أو أنني اختفيت عنها. في أحد الدكاكين الصغيرة الذي مد على أرضه حصير بالٍ جداً، كانت جالسة في الزاوية. وعلى الحصير عدد قليل من الناس يأكلون ويدخنون الكيف والحشيش. وقفت على التو:

عليّ! توحشتك ألزين. أين كنت؟ لقد غادرت الصويرة قليلاً ثم عدت لها. هذا الجو يعجبني كثيراً. يبدو أنني لا أستطيع أن أعيش في مكان آخر من العالم تعال اجلس معنا.

أشارت جهة شاب يبدو أنه من عائلة ثرية. كان يحلق فيّ بصمت. لم تتسخ ثيابه بعد. جديد على هذه الحياة من غير شك. تخطينا بعض الأقدام والرؤوس، وجلست قبالة الشاب على الحصير البالي.

ـ هذا علي. أستاذ في الدار البيضاء.

هزّ الشاب رأسه دون أن يتكلم، حدق في بوابة الدكان بعينين زائغتين وحمراوين. لا شك أنه دخن كثيراً من الحشيش، أو تناول شي مصيبة أخرى أقوى من الحشيش. وقد يخطئ ظني. فربما لم يكن متحشاً ولا هو من عائلة ثرية. وقالت فاطمة:

ـ منذ مدة لم أرك.

ـ دائماً بين الصويرة والديابات. من الأفضل أن يختفي الإنسان أحياناً، لاكتشاف عوالم أخرى أو لاكتشاف ذاته.

ـ صحيح. أنت تتكلم دائماً في أشياء صعبة بقدر ما هي معقولة إذا ما تأملها الإنسان. كل كلماتك ما أزال أتذكرها. ولا تعتقد أنني بليدة ولا أفهم شيئاً.

ـ لم أقل هذا أبداً.

التفتت إلى الشاب الذي كان ما يزال ينظر من بوابة الدكان إلى طلاء الجدار المقابل:

ـ عز الدين. أما تزال معك سيجارة محشوة؟

ظل الشاب صامتاً وجامداً. أدخل يده في جيب الجاكيت وبهدوء تام أخرج علبة السجائر الأمريكية، وشيئاً آخر مده إلى فاطمة. ثم إن هنداً أنجزَتْنا ما تعد؛ مع أنها لم تعدْنا بشيء، ولم نطلب منها ذلك.

قالت:

ـ لم أعد أسكن الفنادق الآن. أنا أسكن في بيت يملكه عز الدين في الملاح القديم. هناك نقضي أياماً ممتعة مع رفاق له ومع عابرين وعابرات. نظر إليها عز الدين بتفحص وصمت دائماً. خصلات شعره متهدلة على الكتفين، سوداء نظيفة، فكرت أنني منذ مدة لم أغتسل، لذلك كنت لا أنام جيداً، وأتقلب في الفراش كثيراً، خصوصاً في الصباح عندما يذهب مفعول الكحول أو الحشيش. أبدأ أحك وأحك، وأحس بحرارة فائقة في أماكن معينة من جسمي. أشم أيضاً رائحة البحر،

مختلطة مع ما تفرزه المسام. يبدو أن لعز الدين حماماً في هذا البيت الذي تحدثت عنه فاطمة. كان يدخن بعمق أمامي، وبصعوبة يتسرب دخان الدكان إلى الخارج، بل إنه يظل يدور ويلوب في فضاء المكان المعتم.

استمرت فاطمة:

- لقد كانت ليلة أمس رائعة. أليس كذلك يا عز الدين؟

رفع الفتى عينيه، وتكلم أخيراً:

- نعم. لو لا تلك الهولندية الحمقاء. التي أرادت أن تنتحر عندما بدأت تضرب رأسها بالجدار. لكن هذه أشياء تعودنا عليها هنا.

قلت:

- هل أنت من الصويرة؟

ردّ ببطء واتزان:

- أصلي من الصويرة. والبيت الذي أسكنه هو لجدي. إننا نقيم في الدار البيضاء.

- لا شك أنك طالب.

- نعم. شعبة الأدب الفرنسي. لكن ذلك لا يرضيني. ليس هناك أساتذة أكفاء. لولا والدتي المشلولة لكنت قد تابعت دراستي في فرنسا أو سويسرا أو بلجيكا. ولكنها المسكينة تتشبث بي كثيراً. أنا الذكر الوحيد في العائلة. كل أخواتي الأربع متزوجات. من أجل تلك المسكينة تحملت الدراسة في الرباط. ثم إني لا أحضر كل المحاضرات. أفضل أن أقرأ في البيت.

ـ ذاك شيء رائع. كثير من العباقرة كانوا عصاميين. إن كليات الآداب لا تصنع أدباء.

ـ أعرف ذلك جيداً. وعندما أنهي إجازتي يفرج مولانا. ربما تكون الوالدة قد توفيت، وسأرحل لأهيئ دكتوراه دولة عن مسرح جاك أوديبرتي. وقفت فاطمة. رأيتها تنادي بصوت مرتفع عند الباب فازداد الدكان عتمة، تجمع حولها هيبيون وهيبيات. مرت امرأة ملفوفة في حايك، لا يظهر منها سوى عينها اليسرى. كانت تنظر إلى فاطمة بتلك العين الواحدة. ولا شك أنها كانت تقول: «الله يستر على قحبة. فالقحوب يجب أن يكون بقواعده، مع الستر والعز والنفخة والنخوة وهلم جرًا». دخلت فاطمة وهي تجر وراءها هيبياً حافياً متسخاً، وقد تمزق سرواله عند الركبتين، ويظهر لحم عجيزته أبيض كالشمع.

قالت:

ـ جونتر. شاب لطيف.

قال عز الدين:

ـ لقد كان معنا ذات ليلة. لا تأتي بمثل هؤلاء. إنه أحمق. ونحن لا شأن لنا بالمجانين.

قال جونتر:

ـ هيللو!

كان يشد شعر رأسه من الخلف بخيط مطاطي. لم يرد عز الدين على تحيته. بل التفت إليّ:

ـ لم يبق لنا سوى هؤلاء. إذا أنفقت فلوسي فأنا أعرف على

من أنفقها لا على أمثال هذا المعتوه. بعض الهيبين أذكياء. يتحدثون في كل شيء. في الأدب، في الفن في الفلسفة. أما هذا فلا تعرفه ماذا يقول. فقط يأكل مثل غول جائع. تصور أن أكل تلك الليلة طنجية بأكملها دون حتى أن يغسل أظافره الوسخة.

- معك حق. أنا أيضاً لا أحب مثل هؤلاء الرجال الجوف.

قالت فاطمة:

- لكنه المسكين طيب ولطيف.

قال عز الدين:

- لأنه جاهل مثلك.

فوجئت أنا بما قاله عز الدين تصورت أن فاطمة ستحرق الدكان فوراً وستحطم كل شيء. لكن الكلمات انحبست في حلقها. ابتعلت ريقها وصمتت. آه. قلت. نموذج الإنسان بازدواجيته. أسد ونعامة. خيّر وشرير. شجاع وجبن. تذكرت: «أنا زمورية وأجرك على الله». أمام هذه الطبيعة البشرية السائدة لا يبقى هناك زموري ولا دكالي ولا فاسي، آسي ولا سامي. البشر يشتركون في أشياء بقدر ما يختلفون في أخرى. صارت فاطمة نعجة ضعيفة في حالة نفاس. استسلمت للراعي. أما أنا فقد كنت متأكداً من أنها تخفي الأفعى في داخلها مثلما أخفي أنا ثعلبي، والذي ظل ينظر إلى ما يجري في المكان بهدوء ووقار وحكمة. تلك أيضاً طبيعة توجد حتى في الثعلب، فهو يجبن أحياناً، يتراجع إذا أحس بالخطر، وأحياناً أخرى يهاجم.

قلت لعز الدين:

ـ لا بأس. اتركه يجلس معنا حتى ينصرف في خاطره. وفوق هذا يبدو أنه محشش بما فيه الكفاية.

ـ محشش أم لا. المهم أنه لن يشم رائحة حشيشي. إنني أستطيع أن أنفق كل رأسمال معمل أبي على الأذكياء. ولكن مثل هؤلاء. أنا لا أرتاح لهم. إنهم عالة فقط.

ثم التفت إلى فاطمة:

ـ لا تقولي بأننا سنأخذه معنا إلى البيت مرة أخرى.

ـ أنا لم أقل هذا. ثم إن البيت ليس بيتي.

قالت النعجة ذلك واختفت ذكورتها. أصبحت تظهر لي الآن أنثى حقيقية. تغيرت صورتها في الذهن، صورتها الأولى في أول اللقاء. وكان جونتر غير آبهٍ لما يدور بيننا، يلتفت حواليه وينظر إلى الهيبين في المكان وهم يأكلون أو يتحششون. حيي فتاة من بعيد فابتسمت له. تحرك قليلاً فوق الحصير إلى الأمام فتراجع عز الدين في اشمئزاز.

نظر إليّ لكي أشاركه اشمئزازه. قلت لجونتر:

ـ ماذا تفعل؟

ـ أتجول في العالم.

ـ هل تركت الدراسة لهذا الغرض؟

أجاب فرنسية ركيكة:

ـ لقد درست في السجون والإصلاحيات. آخر مدرسة عامان سجناً في إيران. أنا معجب بشاه إيران إنه رجل عظيم، لكن السجن هناك قاسٍ.

قال عز الدين:

ـ هل سمعت ما يقول هذا الحلوف؟ ماذا يمكنك أن تستفيد منه؟

قلت لعز الدين:

ـ لا بأس. نتعلم كيف نستمع لكل الناس. فمن أخطائهم نستفيد لنصحح أخطاءنا.

ـ إن وجود مثل هذا على الكرة الأرضية خطأ فادح.

ـ ومن أدراك. قد يكون وجودنا نحن هو الخطأ. أقصد وجود الأقلية على الأرض.

سرح في دخان الفضاء. لم يرد ولكنه أمر فاطمة أن تحشو سيجارة أخرى.

وقال جونتر بفرح ظاهر:

ـ آه معكم حشيش. رائع، رائع جداً.

قال عز الدين بالعربية:

ـ والله لن تلمس هذه السيجارة شفتيك.

قالت فاطمة:

ـ كن مطمئناً. سوف أصرفه بطريقة مهذبة.

ـ ذاك شغلك.

لكنها أمرته أن ينصرف بطريقة غير مهذبة:

ـ جونتر. نلتقي مرة أخرى. نريد أن نتحدث في مسائل خاصة الآن. قال بكل عفوية:

ـ نعم. نعم. نلتقي في الكافي هيبيز.

ـ تماماً.

ـ باي باي.

ثم غادر الدكان بعد أن تخطى بعض الأرجل والرؤوس، فسمعت عز الدين يتنهد تنهيدة الخلاص.

قال لفاطمة:

ـ لا تفعلي مثل هذا مرة أخرى.

ـ لم أكن أعرف أنك تكرهه. لن أكرر ذلك مرة أخرى.

ـ أنت تعرفين أنني أختار أصدقائي.

التفت إليّ:

ـ اسمح لي. أنا لا أتحدث عنك. إني أتحدث عن هؤلاء الهيبيين لأنني أعرفهم جيداً. أنت البيت بيتك. لا تضرب حسبة. الأكل والشراب والحشيش والبنات من الآن. إن أمثالنا قليلون هنا.

قلت:

ـ شكراً. أنا مقيم في الديابات الآن.

ـ اترك كوخك هناك وتعال لتسكن معنا. لكن يبدو أنك تفضل العزلة.

ـ إنه عالم غريب هناك، ولذلك فضلت أن أكتشفه ربما أختزن شيئاً في الذاكرة لأكتب عن ذلك العالم في المستقبل رواية أو أي شيء.

ـ رائع. هل تكتب؟

ـ بعض القصص القصيرة.

ـ أنا أيضاً أكتب شعراً لكني لا أنشره. سوف أقرأ لك بعض القصائد فيما بعد. أما هذه، فإنها لا تفهم في هذه الأمور. لكنها طباخة ماهرة وإن كانت غشاشة.

زعقت الموسيقى فجأة. صوت جيمي إندريكس. عرفته للتو. إنه الصوت الذي لا تخطئه الأذن. اهتز جسد عز الدين، لم يعد جامداً كما كان تغيرت ملامح وجهه فجأة وانشرحت. ما كنت أعتقد أن الموسيقى تستطيع أن تفعل ذلك في الإنسان. أصبح عز الدين شخصاً آخر قوياً مقتحماً جريئاً. دغدغت فاطمة السيجارة برفق بين كفيها ثم أشعلتها وقدمتها له. دخن ثم قدمها لي. كان صوت الجيتار يملأ المكان. يتسرب بين دخان الكيف في الفضاء وربما أيضاً، ينتشر في الفضاء الخارجي.

قال عز الدين:

ـ هذا مبدع حقيقي. إنه يكتب بالجيتار، يرسم لوحات خارقة، يحلق في فضاء حلم. خصوصاً إذا استمعت إليه وأنت محشش. هززت رأسي موافقاً، وناولت فاطمة السيجارة. كنت أزم شفتي، وأترك للدخان الذي استنشقت فرصة أن يتوغل في عمق هذا الجسد الذي لم يعد جسدي ولا جسد الثعلب. كثيراً ما شعرت بهذه الحالة. أتصور هذا الجسد مجرد عربة تحمل شيئاً ما قد يكون الروح. ولكن الروح من أمْر ربّي، وقد يكون شيئاً آخر. والدخان الآن يتسرب داخل تلافيف العربة ليدغدغ ذلك الشيء. فكرت أن الجسد مجرد أداة، يدافع عن ذلك الشيء الموجود في كل شيء حتى في صوت الجيتار. الجسد

وقاء. جسدي هذا وأجساد باقي الكائنات الحية. أما ذلك الشيء الآخر الذي قد يكون اسمه الروح فأمره غريب. أقصد روح الإنسان، روح الحيوان، روح الرائحة، روح الصوت، روح شعاع الشمس، روح الكون بأكمله والتي لن تكون سوى الله. والسير في المتاهة الأزلية لن يؤدي إلاً إلى شيئين، النفي أو الإثبات. الشك أو اليقين...

قال عز الدين:

- فيم تفكر؟ أشعر أني في حالة خاصة. هل أنت كذلك؟

- نعم أنا أيضاً. حالات من الذهول تنتابني أحياناً فانفصل نهائياً عن القطيع.

- هل تحميهم قطيعاً؟ برافوا عليك! إنهم قطيع بالفعل.

- كلما دخنت الكيف أو الحشيش أشعر بجفاف في حلقي وبجوع.

- عليك أن تطلب ليمونادة. كل أي شيء. أنا قلت لك. لا تضرب حسبة. أعرف أنك أستاذ فقير ولا شك أن وراءك عائلة تنفق عليها. لا تعتقد بأنني غبي فأنا لا أفهم في هذه الأمور.

قلت:

- معي قليل من النقود، سوف أذهب لأشرب بيرة.

- فكرة حسنة. ولم لا تدعونا لنشربها معك. هل تعتقد أنني أصلي على فروة السبع؟

وقف عز الدين. دفع لصاحب الدكان، ثم ذهبنا إلى بار صغير يعرفه جداً. فاطمة تشرب بصمت. تغيرت تماماً. اختفى

من سلوكها ذلك النزق الذي عرفته فيها. لم يكن عز الدين رجلاً من النوع الذي يتكلبن أمام المرأة. كان يبدو صارماً ولطيفاً في نفس الوقت. لاحظت خلال هذا الوقت القصير أن له ثقة كبيرة في نفسه، الشيء الذي لا يتوفر لدى القطيع. امحت نهائياً الصورة التي كونتها عنه أول الأمر. الفتى الثري، المدلل، الغبي، الذي لا ثقة له في نفسه ولا في الآخرين. الآن فقط بدأت أعرف لماذا كان صامتاً وخجولاً. لم يكن ذلك الصمت سوى ترصد. دراسة مسبقة للإقدام على أي فعل أو قول. لكن شعرت أنه استراح للقائي. على الأقل وجد من يتحدث معه عن مشروعه، جاك أوديبرتي مسرحياً. وأن تتحدث في هذه الأشياء مع الناس فذلك نوع من الحمق. ففي هذا المغرب الصَّقع جرت العادة ألا يتحدث الناس سوى عن فروجهم وما سوف يمتلكون من دور أوْ فيرمات. وفي حالات مثل هذه ليس على أمثال عز الدين سوى الصمت، الاستماع، واجترار الآلام الداخلية من جراء ما يتردى فيه القطيع من بلادة وانحطاط، والذي يريد قسراً أن يعكس كل ذلك على الأقلية التي تتحمل آلامها الخاصة وآلام القطيع.

ـ نفس الشيء. باردة جداً.

قال الجرسون:

ـ حاضر.

قال عز الدين:

ـ قليلاً من السردين من فضلك.

ثم توجه إليّ بالخطاب:

ـ كنت ستحتفل وحدك. . . ولماذا لا نشرب جميعاً؟

ـ ما كنت أعتقد أنك. . . إني أتحفظ من البشر أحياناً. بل قلْ دائماً.

ـ ذلك هو طبعي أيضاً. ولكن كان عليها أن تعرفنا على بعض. لا أدري شيئاً من أمر هذه المخلوقة.

قالت فاطمة:

ـ ما عرفتش.

ـ ومتى عرفت في حياتك شيئاً؟

لا مجال لأن أتعجب. رأيتها تحلق في فضاء البار. ثم مدت يدها لتحمل كأس البيرة إلى فمها. وجاء الجرسون بثلاث بيرات مثلجة. بعض الصيادين يشربون النبيذ في زوايا البار، ويتحدثون بهدوء. لا شك أنهم مقموعون هنا من طرف السلطات المحلية. الشاربون في الدار البيضاء حتى ولو كانوا ماسحي أحذية، يتقمصون شخصيات القايد والوالي والوزير عندما يشربون نصف زجاجة من النبيذ. ولا يستعيدون شخصيتهم الحقيقية إلا عندما يجدون أنفسهم في أقبية مراكز الشرطة أو المقاطعات أو ملفوفة رؤوسهم بضمادات على إثر معركة طاحنة بسكين أو زجاجة أو كأس. . . كنت أشعر بانشراح بعد البيرة الثانية. ظهر ذلك على عز الدين أيضاً وأمر فاطمة أن تحشو سيجارة أخرى.

قلت له:

ـ لا شك أننا سنفقد وعينا قبل حلول المساء.

ـ الوعي الحقيقي لا يفقد سواء بالخمر أو بالحشيش. في حين أن الوعي الزائف سوف يظل زائفاً بدون سكر إلى أن يفتضح أمره بعد تناول مادة مسكرة أو محششة.

ـ أقول إننا سوف نشعر بتعب حقيقي هذا المساء. وأنا أحب عالم الليل. فيه أدخل المطلق. وإذا استمررنا هكذا فإن الليل سوف يفلت من بين يدي على الأقل.

ـ لا تخف. ما دمت معي فلن يفلت منك أي شيء. أنا أعرف المدينة وأعرف كل ما يجري هنا. لا تخف. وإذا تعبت فما عليك إلا أن تنام. لقد قلت لك: إن البيت بيتك. ولا تقل بأنك سوف تذهب إلى قرية الديابات هذا المساء.

جاء الجرسون بثلاث بيرات مثلجة، دون أن يطلبها منه أحد. فتحها بسرعة معهودة في الجراسين المحنكين. قال عز الدين:

ـ لماذا هذا؟ لماذا تكلف نفسك؟

رد الجرسون:

ـ كانت الأيام زينة عندما كان أبوك يملك هذا البار.

خيرك سابق يا سيدي.

قال عز الدين:

ـ عندي فلوسي. لماذا تكلف نفسك؟

ـ الله يكثرها عليك. الله يزيدك. أنا لا أكلف نفسي. خيرك سابق.

قلت لعز الدين:

ـ هل البار كان في ملك أبيك.

أجاب بإيماءة من رأسه. ثم التفت إلى فاطمة التي كانت ذاهلة، تنظر إلى بعض الصور المعلقة في الجدار الأيسر للبار:

ـ اشربي. سوف نذهب إلى البيت. إنها الخامسة هذا المساء سوف تطبخين طجيناً معتبراً على شرف الأستاذ. أحسن ما فعلت في حياتك أنك قدمتني لصديق ربما دامت الصداقة بيننا مدى العمر.

قلت:

ـ العفو. أتمنى أن يحصل ذلك. ربما كان مزاجنا متشابهاً. أحسن أيضاً أننا نعاني نفس المعاناة في مجتمع القطيع هذا.

ـ مرة أخرى، أؤكد لك أنهم قطيع فعلاً. ولا يمكن أن يعيش وسطهم إلا الثعالب... حركت عيجزتي فوق التاوري. كان الذيل يريد أن يمزق السروال. لمست أنفي وفمي ثم عطست. ظلت الأمور كما هي. لم يبرز خطم ولا ذيل. وحمدت الله على ذلك لأنه لم يفضحني أمام شاب يحسن الظن بي. ولاحظت أن الثعلب اختار له مكاناً معيناً وانزوى فيه. وقلت في نفسي: «خير لك أن تفعل هذا. أنت القدوة. اخرج في الوقت المناسب واختف في الوقت المناسب أرجو ألا تورطني». ورأيته يغمض عينيه ويفتحهما بكل ظاهر، في ذلك المكان المعين بالضبط. ثم سمعت النعجة تقول لي:

ـ سوف أهيئ هذه الليلة طجيناً تأكل من أجله أصابعه.

ـ ما عرفت عنك هذا.

ـ وكم تعاشرنا حتى تعرفني حقاً؟

قال عز الدين:

ـ خير لك ألا تعرفها. فهي غشاشة وتعتبر نفسها أذكى من الآخرين. ضحكت، ولم تقلقها كلمات عز الدين. ورأيته يرشف كأس البيرة دفعة واحدة ويتزحزح من مكانه بهدوء كامل. قال:

ـ لننصرف. حتى نهيء كل شيء قبل حلول الظلام.

فعلت مثله، في حين لم تستطع فاطمة أن تفعل مثلنا. غادرنا البار، ومشينا وسط أزقة ضيقة خالية وعامرة. وصلنا إلى باب تقليدي على واجهته خرصة نحاسية. لم يطرق عز الدين الباب ولكنه دفعه بقدمه. صعدنا درجاً حجرياً إلى أن وجدنا أنفسنا في صالة واسعة امتدت فوق أرضيتها زريبة مغربية ملونة. قال عز الدين:

ـ الدار دارك. لك غرفة هناك. هل تريد أن تراها الآن؟

قلت:

ـ فيما بعد. أشكرك.

ـ إن هذه تنام معي في غرفتي. وغالباً ما ننام هنا في هذه الصالة. أنت تدري أن الإنسان عندما يسهر حتى الصباح فإنه لا يفكر كيف ولا أين ينام.

ـ حصل لي هذا مراراً.

ـ مرة نمت في مزبلة بعد مضايقات بعض الحلوف.

ـ أنا أيضاً فعلت ذلك. كيف أن حياتنا تتشابه هذا أمر غريب.

ثم قال لي الثعلب:

ـ لا تبالغ قليلاً. لا تحاول أن تجاريه في كل ما يقول.

قلت:

ـ أمرك.

قال عز الدين:

ـ ماذا تقول؟

ـ قلت أنا أيضاً حصل لي نفس الشيء. هذا أمر غريب.

وقال عز الدين:

ـ تفضل اجلس، ذلك الصندوق مملوء بقنينات الخمور. وإذا أردت أن تدخن أو تستمع إلى الموسيقى فتصرف كما تشاء. سوف أتغيب فترة قصيرة.

كانت فاطمة قد جلست قبلي وأخذت تتصفح بعض المجلات الملقاة فوق الزريبة. في الواقع لم تكن جالسة ولكنها كانت ممددة على بطنها. وقال عز الدين وهو لا يزال واقفاً:

ـ اهتمي بالأستاذ. إذا كان يريد أن يأكل فالمطبخ تعرفينه. جيداً. وإذا زارنا أحد احترمه فافتحي له الباب. لا أريد مجنوناً أو غبياً في هذا البيت. انصرف عز الدين. وقفت فاطمة وذهبت لتشغل الكاسيت. . . صوت دافئ لنينا سيمون. لم أعترض ولكني تمددت على ظهري. كنت أنظر إلى السقف وأدخن. ثم أخذني النوم بعد ذلك. لم أستيقظ إلا على صوت عز الدين:

ـ دعي الأستاذ يستريح. لا توقظيه.

كانت أصوات أخرى وموسيقى ورائحة كيف وحشيش.

فتحت عيني. امتلأت الصلاة بهيبيين وهيبيات. لم يلتفت إلي أحد ولم يهتم بي أحد. استرحتُ لذلك. هذا شيء خارج عن المعتاد. استرحت أكثر عندما رأيت هيبياً ممداً وهو يغط في نومه أو في تحشيشته وسط الصالة. لا هذا يهتم بذاك ولا هاته بتلك. فتحت عيني أكثر وظللت أتأمل أي عالم أنا موجود فيه. كان عز الدين جالساً عند رأسي لا يراقب أحداً ولا يهتم بأحد، ويبدو أنه كان يتحدث إلى الذي يجلس عن يمينه. وقال عز الدين:

ـ هل استرحت بما فيه الكفاية؟

ـ نعم. يكفي. لا أدري كيف أخذني النوم.

الغالب أنك تعبت أمس.

ـ والله لا أدري.

ـ تشرب أم تدخن؟

ـ أفضل أن أذهب إلى التواليت أولاً. ما أزال في عالم آخر.

ـ أي عالم؟ أنت ما تزال في عالمنا. العالم الآخر لا أدري كيف سوف يتحمل كل هذا القطيع. القطيع الذي انقرض ومات، والقطيع الذي لا يزال يدبُّ على وجه الأرض.

ـ عندما أغسل وجهي، سوف أحاول أن أنسجم. لا شك أنك جربت هذا. وفي التواليت كانت فاطمة تمسكني من شعري، وهي تقول:

ـ آلنعاس. أفق آلنعاس! لن تنام هذه الليلة. حاولت أن أوقظك ولكن عز الدين منعني مراراً وتكراراً. كنت أقول له بأنك لن تنام هذه الليلة.

ـ لا يهم. أنا متعود على ذلك. يعجبني أن أرى نور الفجر على شاطئ البحر. انصرفت وتركتني وحدي. أحنيت رأسي تحت البزبوز وتسربت قطرات الماء إلى ظهري فشعرت بانتعاش. لم أتحمل أكثر تدفق الماء فوق رأسي. جففت شعري بالفوطة النظيفة المعلقة على الباب. وقال لي الثعلب: «ها أنت الآن إنسان آخر. وعليّ أن أتركك تتصرف كما تشاء». وتساءلت مع نفسي كيف أستطيع أن أشاء. وكيف يستطيع أي إنسان على الأرض أن يشاء أو يريد؟ وفكرت مع نفسي أن القطيع هو الذي يريد لنا مانريد. ويا حبذا لو تحقق جزء بسيط مما تريده النعاج في هذه الحياة. لأنها تريد دائماً وتظل تريد إلى أن تذهب إلى البرزخ دون أن يتحقق كل ما أرادت. وأما الإرادة الحقيقية فهي إرادة الخير. أما إرادة الشر فالقطيع كفيل بتحقيقها، ويعمل كل ما في مستطاعه لتنفيذ تلك الإرادة الخبيثة. واسمحوا لي إذا أصبحت أخلط شعبان في رمضان. إن الحديث يجر الحديث. فلأعد إلى حوض الماء وأتمخط فيه وأفتح البزبور من جديد وأغسل أنفي، ولأستمر في حكاية الذي جرى. عادت فاطمة إلى التواليت، قالت بعد أن دفعت الباب بقوة:

ـ هل عاودك النوم؟ لقد تأخرت.

ـ كنت أتمخط.

ـ عندما كنا صغاراً، كنا نأكل مخاطنا. كانا مالحاً ولذيذاً. كم ضربتني أمي من أجل ذلك.

ـ إخ تفو... لا يليق بأنثى أن تقول هذا الكلام.

ـ ما فيها عيب. أنا لست متكبرة. كل المغربيات أكلن

المخاط في طفولتهن. وهن الآن لا يرضين بذلك. بل أكلن ما هو أفضع. أعرف صديقات لي فعلن ذلك. ولكنهن الآن توظفن وارتدين لباساً أنيقاً وأصبحن يتحدثن بالفرنسية. أنا لا أشبههن. وعلاش أكذب عليك؟ هل ستتزوجني؟

ـ اذهبي فأنا أريد أن أبول.

ـ وَخّا! عز الدين هو الذي أرسلني إلكي.

اختفت. وقمت ببعض الحركات في الفضاء. لقد ولدت من جديد. وقليلة هي الأوقات التي يشعر فيها الإنسان حقاً أنه ولد من جديد. قد تمر تلك اللحظات دون أن يعيرها اهتماماً، وعوضاً من أن يستغلها فإنها تفلت منه في دوامة آلية حياة القطيع. هذه لحظات سعيدة وأعرف أنها لن تدوم. لا بد أن يحصل الطارئ الذي يعكرها. وهذا على الأقل ما علمتنيه تجارب الماضي. فلتكن إذن هذه اللحظات لحظات صفاء. وسمعت من خلف الباب وسط ضجيج الموسيقى صوت فاطمة:

ـ عليّ!. تعال فكأسك تنتظرك.

عدت إلى الصالة وجلست في المكان الذي كنت ممدداً فيه. كان الباب المؤدي إلى السلم الحجري شبه مفتوح وفي زاوية الصالة، رأيت سلمى ولم أصدق عيني. قلت لعز الدين إني أعرفها فقال بأنها حمقاء، وهذا لا يمنع من أنها جميلة. ثم أضاف:

ـ هل تريدها؟ اذهب إليها.

ـ إنها تعرفني. لقد نامت معي، ويبدو أنها لم ترني.

ـ لقد دخلت مع أولئك الثلاثة عندما كنت في التواليت.

ظللت أرمقها وأنا أرشف من الكأس التي قدمها لي عز الدين. كان لطعم الخمرة مذاقٌ خاصٌ وغريبٌ... أشعلت سيجارة وأنا لا أزال أرمق سلمى إلى أن رفعت رأسها نحوي. حدقت فيّ من خلال دخان الحشيش والكيف لتتأكد من أنها لم تخطئ. بالفعل وقفت واتجهت لترتمي عليّ، دون أن يهتم بها أحد... عز الدين فقط هو الذي نظر إليها، ثم انخرط في عالم الصالة:

ـ عليّ. أين اختفيت؟ كنت أبحث عنك.

ـ هل جئت من القرية؟

ـ نعم. مع أصدقاء. تركت هناك حفلة.

ـ من الأفضل أن يغير الإنسان الأماكن أحياناً.

ـ معك حق. والأشخاص أيضاً. هذا ما حاولت أن أفعله دائماً.

ـ وأنا أيضاً. إلا أني قلّما أغير النساء حتى يغيرنني أما الأماكن والذكور فأسهل وممكن بالنسبة لي...

طلبت من عز الدين أن يسقيها كأساً. فقال بأنها لا تشرب... تتحشش أحياناً. قلت له لنتأكد بأنها لا تكذب. وعندما أفرغ لها كأس النبيذ رفضته وقالت أنا أفضل أن أدخن فجاءها الشيلوم من مكان ما، وكان يبدو عليها أنها تناولت كمية من الحشيش في السابق. ولا يمكن لمثلي أن يخطئ في هذه الحالة، خصوصاً وأنني استيقظت من النوم للتو، ورغبتي موزعة

بين أن ألحق بالركب أو أن أظل متأخراً عليه. ولكن ما فائدة أن أظل في المؤخرة؟ إنه الليل ولا أحد يراني سوى الله. ولا أحد يعرفني أو يعرف في داخلي ثعلباً سوى الله. والذين يعرفونك أو يدعون أنهم يعرفونك جيداً من الأصدقاء أو الأقارب هم الذين يوقظون فيك الثعلب مهما حاولت أن تقْبره. أما في لحظات مثل هذه فما على الثعلب إلا أن يستريح وينام على جنب الراحة، وإذا تطلب الأمر أن يستيقظ فعلى كل حال، لن تكون مهمته عسيرة بالشكل الذي يمكن أن نتصوره.

وعوداً على بدء...

مرت ساعات وشعرت أني سكرت. رقصت وراقصت. واختلط الحابل بالنابل أقصد الفم بالفم واليد بالنهد أو بأي شيء آخر. وكانت الموسيقى تتجدد والغرفة عامرة بالدخان. يدخل أشخاص ويخرج آخرون. اختفى عز الدين عني وسط الصالة وكانت سلمى نائمة الآن إلى جانب زجاجة النبيذ التي ما فتئتُ أفرغ منها لنفسي رغم شعوري بالإكتفاء. وقلت في نفسي: هذا عالم يجب أن نكتب عنه وأن يقرأه التلاميذ في المدارس. وفكرت شخصياً: أنني تعبت من تدريس قصائد في مدح الخلفاء والملوك وقصصاً عن القط السمين والقط الهزيل والأم الحنون التي تساعد ابنها على ارتداء ثيابه وغسل فمه بمعجون الأسنان، وتقول له: «قبِّلْ ماما» لأني لاحظت أن أغلب تلاميذي صفر الوجوه. مُسَوَّسو الأسنان من جراء الكيف، لا يفطرون في الغالب ولا تساعدهم أمهاتهم على ارتداء ثيابهم. آه!. ولماذا بالضبط الكتابة عن عالم الحشيش؟. لماذا لا تكون عن بؤسهم

الحقيقي. مثلاً: الأم التي تذهب كل صباح إلى الموقف. الرجل الذي سُرقتْ دراجته. الأب الذي تزوج امرأتين وخلف عشرة أبناء. الأخت التي تقحب من أجل إعالة أطفالها أو إخوتها. كم هي صعبة الكتابة عن هذا البلد؟. وتصورت لو أن هيمنجواي ولد في ابن مسيك لصار ماسح أحذية. وهنري ميللر لو ولد في الحي المحمدي، لكان على أكبر تقدير خرازاً. ولماذا أهوم كثيراً؟ ولأعد من حيث بدأت. لكن من أين بدأت؟ أين الثعلب وأين قزيبته؟ كنت سكران ولم أرد أن أستمر في هذا الجو. عندما أشرب تنتابني أحياناً رغبة في الخلوة. ما عدت منسجماً مع هذا العالم. جاء عز الدين وقال لي:

ـ مالك؟ سكرت؟ هذا ما نحلم به جميعاً.

ـ لا. لم أسكر لكني أريد أن أختلي بنفسي.

ـ اذهب إلى الغرفة المجاورة. هل تريد أن تأخذ معك هذه الجثة الميتة.

ـ لا داعي لإيقاظها. لا شك أنها تحلم بأمها وبأبيها.

ـ أيقظها.

ثم رفعها من إبطيها. فتحت عينيها الذابلتين اللتين غلب عليهما النوم.

ـ اذهبي إلى الغرفة الأخرى ونامي مع الأستاذ.

ـ أوكي.

تحاملنا على بعضنا إلى الغرفة الأخرى، سقطنا ووقفنا مرتين، كان جسمها ثقيلاً، وكانت قدماي لا تستطيعان حملي.

تمددنا على الأرض. قبلتني وأغمضت عينيها. أشعلت لي سيجارة وتمددت على ظهري وظللت أبحلق في فضاء وسقف الغرفة. وكانت صور كثيرة وأخيلة وهلوسات وعنف، كلها تتحرك في رأسي. ظللت على تلك الحال مدة غير يسيرة، وسمعت صوت الموسيقى يرتفع عندما انفتح الباب ودخل شخصان محششان إلى الغرفة التي كنت فيها مع سلمى. ارتمى أحدهما فوق الأرض وفعل الآخر مثله. أخذ أحدهما يكلمني ويشير إلى سلمى وقلت إنه ربما كان يعرفها من قبل هززت رأسي له وتركت أصابعي تعبث بشعرها، في حين أخذ هو يفعل نفسي الشيء بشعر صديقه. لكنهما بدآ يقبلان بعضهما. فقلت: ربما كان الواحد منهما يتصور الآخر انثى، إلا أنهما في النهاية تخلصا من سرواليهما. اشمأززت من ذلك المنظر. استرجعت وغيي وطارت الخمرة من رأسي، وقفت وأنا أتعثر باحثاً عن عز الدين. جاء ورأى ما يجري ثم قال لي:

ـ استرح ولا تهتم لما يحدث. هذا أمر عادي.

ـ أنا لا أتحمل رؤية ذلك. فالله خلق الأنثى وخلق الذكر. ولو كان هذا أمراً عادياً لخلق مع ضلع آدم آدم آخر وانتهت المشكلة.

ـ ولماذا تفلسف يا أستاذ؟ احرص على إستك والسلام.

ـ أنا لا أؤيد أن أرى هذا.

ـ وكيف ستكتب إذا لم تر كُلّ شيء؟

ـ لقد رأيت بما فيه الكفاية، حتى أنني أصبحت أعجز عن الكتابة عما رأيت. اسمح لي أن أنصرف لأنام في القرية.

ـ الله يهديك. تذهب على قدميك في نهاية الليل إلى القرية. . .

ـ سأذهب على طول الشاطئ. أعرف طريقاً تؤدي إلى القرية.

ـ أعرف تلك الطريق. لكن يمكن أن يعترض سبيلك أحد اللصوص.

ـ سيكون معي ثعلبي.

ـ ماذا تقول؟ هل جننت؟ ثعلب؟ لا شك أن الخمرة أثرت عليك. من الأفضل أن تنام الآن. أنا سوف أخرجهما فوراً.

وعندما كنا نتحدث، كانا يلهثان، ثم استرخيا فوق الأرض. قلت:

ـ تفو!.

قال عز الدين:

ـ ها أنت ترى. إنها مجرد لحظة عابرة وتافهة.

وسوف يحصل لك نفس الشيء مع التي تنام بجوارك. . .

ثم دفعهما خارج الغرفة وتركني واقفاً. ضربت الجدار بقبضة يدي. لعنت شيئاً ما في الفضاء. لكني في النهاية التصقت بجسد سلمى. وكنت أتصور ما يمكن وما لا يمكن تصوره إلى أن أخذني النوم دون أن أفعل ما كان عز الدين يتصور أنني سأفعله. . .

(8)

تتغرز أشعة الشمس في سحب خفيفة، تغطي المدينة والبحر، تنقشع تلك السحب لتتلوها أخرى، ثم تعاود الأشعة تحديها. ولا شك أن العملية استمرت ملايين السنين، لم تقهر فيها السحب ولا الشمس ولا البحر. يقهر الإنسان. وتقهر إبداعاته التي طالما مجدها ومجدها أسلافه. إلا أن الغيمة تقهر لتنقض مرة أخرى. ويكون الإنسان قد ذهبُ وترك وراءه الماء والنار والهواء والتراب والرغبة. . .

الرغبة! .

كنت أفطر في الواحدة ظهراً في الكافي دوفرانس. أشرب القهوة الممزوجة بالحليب مع كعك هلالي. وقف أمامي. لم أتبينه أول الأمر. قال:

ـ أستاذ. أنا إبراهيم. هل أنت دائخ؟ لا شك أنك تحشش وتسكر كثيراً. قلت:

ـ اجلس. اجلس.

قال:

ـ هذه حوائجك تتركها هناك وتنصرف. أنت لا تعرف الصويرة ولا الديابات.

ـ إنهم لن يسرقوها.

جلس بطريقة غير مريحة. ليس واقفاً ولا جالساً.

ـ أريد أن أتحدث إليك. يجب أن نغادر المقهى فوراً إلى أي مكان. الأمر يهمك ويهمني وإلا قضيت طول عمرك في السجن.

شعرت برعب حقيقي. حتى ولو كان ما يقوله مجرد مزاح أو مجرد هلوسة حشاش فإن فرائصي بدأت ترتعد. وعلى كل، فوجود حوائجي معه لن يكون مزاحاً، وإن كان يمكنه أن يكون هلوسة. وضع جرابه فوق كتفه. اجتزنا الساحة ومررنا قرب محطة الحافلات.

قلت له:

ـ فلنذهب إلى الصخور إذا كان الأمر خطيراً.

ـ لن نذهب إلى أي مكان يعرفونه.

بحثت عن خطمي وذيلي بدون جدوى. هكذا يمكن للثعلب أن يتخلى عنك في اللحظة غير المناسبة. مشينا حتى بلغنا ضريح سيدي مجدول. وسار بي وسط أشجار كانت تتخللها بعض الأكواخ وبعض البيوت الصغيرة البيضاء في حجم بيض الرخ. لم يكن هناك أثر لبشر. ويمكن أني رأيت حماراً أو دجاجة لا أدري. جلسنا قرب مجموعة صغيرة من الأشجار القصيرة وخلفها كان يمتد سهل فسيح غير خصيب.

قال إبراهيم:

ـ الآن لا يمكن لأحد أن يتعرف على مكاننا. نحن لم نفعل شيئاً ولكن الدولة لا ترحم.

ـ إنني لست مهرباً. وأنت تعرف أن بيع الحشيش مباح وهو مصدر رزقك.

ـ لا أقصد هذا يا أستاذ. فلأتحدث معك بصراحة الآن. نحن وحيدان في هذا المكان ولا أحد يسمعنا. لقد عثروا على ثلاث جثث لهيبيات وسط الأشجار.

ـ وما لنا نحن؟ هل قتلناهن؟

ـ أنت لا تعرف شيئاً. أحياناً تقع حادثة بسيطة فيقوم رجال الدرك في الدبابات والبوليس في الصويرة بجمع كل الهيبيين. أنت لا تعرف هذا. وكثيراً ما صدرت أحكام في أبرياء عرفتهم شخصياً. أحكام قاسية. أرجوك! خذني معك إلى الدار البيضاء. أنقذني وأنقذ نفسك. لن أكون ثقيلاً عليك. أمكث معك في بيتك يوماً أو يومين، فإني أعرف أصدقاء أوربيين يتاجرون في الحشيش هناك، أبحث عنهم في يوم أو يومين، ثم أترك لك راحتك...

ـ لا أفهم شيئاً في هذه الحكاية. ثم إني لم أقتل أحداً.

ـ قلت لك أنت لا تعرفهم. سوف يأخذونك، سوف يأخذوننا جميعاً ويعلقوننا. لقد فعلوا بنا هذا مراراً من أجل لا شيء. فكيف بالقتل؟ هل تعتقد أنهم سوف يحترمونك لأنك أستاذ؟ أعرف أستاذاً سبقك إلى هنا في إحدى العطل، أخذوه إلى المركز وظل فيه أسبوعاً ينظفه... مسكين! حلقوا له شعره

وأقسم ألا يعود إلى هذه المدينة أبداً. أنت لن يقصوا شعرك، وإنما سوف يحزون رقبتك.

ومرر بيده على عنقه. ونظرت إلى السهل الفسيح غير الخصيب، ثم إلى السماء. لا أحد. لا بشر. لا حيوان. الصمت تقطعه زقزقات الطيور فوق الأغصان. ويبدو أنني رأيت قبل لحظة حماراً أو دجاجة لا أدري. أشعلت لي سيجارة وناولت واحدة لإبراهيم. وفكرت ألا أحد يريد أن تلحق به متاعب حتى ولو كان مازوشياً، وكثيرون هم الذين يرغبون في إلحاقها بالغير لكي يتفرجوا ويتشفوا. كما يتمنى العبد للسيد. والخادمة لربة البيت. والمحب المهجور للحبيب الهاجر. وأنا لا أريد لي متاعب، وقد كنت أقبلها على مضض لو أنني كنت سبباً فيها بمحض إرادتي. ثم إني لا أنصف حتى غرفتي في الدار البيضاء فكيف أنظف مركز الشرطة أو نقطة الدرك...

قال إبراهيم:

- فيم تفكر يا أستاذ؟ أعرف أنك ذو عقل كبير، ولكني أدرك ما لا تستطيع إدراكه. أعرف أولاد القحاب جيداً. إن ما وقع، حريرة وأية حريرة؟!. حريرة يابسة. ومن البلادة أن نطبخ في هذه الطنجرة، رزقنا الله عقلاً نفكر به. فلننصرف إذن من هنا. لقد بدأت الاعتقالات في قرية الديابات وسوف تمتد إلى الصويرة. وإذا بقينا هنا فإن مصيرنا لن يكون حسناً بالشكل الذي يمكن أن تتصوره. أنا أعرفهم. أعرفهم جيداً.

سقطت تينة من الشجرة التي كنا تحتها. تناولها إبراهيم ومسح التراب عنها. أزال قشرتها بأناة، وهو منهمك في حديثه

عما سنتعرض له لو وقعنا في يد الدرك أو البوليس. اقتسمنا التينة وأكلناها قال وهو يتلمظ:

ـ لقد اشتركنا في أكل طعام واحد. وأنا لا أكذب عليك ولا أغدر بك. وإذا فعلت، فهذه التينة سوف يكون لها مفعول على ركبتي، لن أتحرك بهما منذ الآن. وعلى عيني. لن أبصر بهما منذ الآن.

قلت:

ـ الله ينجيك ويحفظك ويخليك لأمك العزيزة.

وما دام الأمر كذلك فقد فكرت أن نحْلق شعرنا فوراً وأن نتنظف قليلاً، ونسافر إلى الدار البيضاء بأية وسيلة. قلت ذلك لإبراهيم فاقترح عليّ أن نسير على الأقدام مسافة معينة، حتى نصل إلى محل حلاقة يوجد قرب محطة بنزين تتوقف فيها الشاحنات. ومرة أخرى، فأنا لا أريد متاعب لنفسي ولغيري. وكثيراً ما كان إلحاق الأذى بالآخرين، ناتجاً عن شيء فوق طاقتي. لست إلهاً وليست ملاكاً... اجتزنا وادياً صغيراً لنسير فيما بعد على جانب الطريق الرئيسية، ولم تكن هناك أشجار، إلا أن بعض الخضرة تظهر من بعيد. ووسط تلك الخضرة تظهر بقع بيضاء، وعلى جانب الطريق كان هناك حفير موازٍ لها.

فكرت لو أني رأيت سيارة درك مثلاً أن نختفي فيه. قلت لإبراهيم فقال بأن الأمر لم يعد يهمنا ما دمنا قد ابتعدنا عن المدينة وأن عليّ أن أتبعه، ومهمتي تنحصر الآن في أخذه معي إلى الدار البيضاء. قلت في نفسي سمعاً لكن الطاعة لا أدري. ولا يمكن أن أضمنها لك ولنفسي. ثم بعد مسافة معينة وصلنا

إلى القرية الصغيرة، حيث محطة البنزين وبنايات قصيرة ضيقة، وحوانيت قليلة وقهوة ينبعث منها صوت موسيقي، وأمام القهوة دراجات نارية قديمة. ثم قال إبراهيم:

ـ سوف نذهب لنحلق شعورنا. إني أعرف الحلاق جيداً فهو صديق لي، ويدخن الكيف كثيراً، إلا أنه لا يحب الهيبيات ربما لضعف همته.

قلت:

ـ المسألة التي تؤرقني الآن هي كيف الوصول إلى الدار البيضاء.

ـ لا عليك. هذه المسألة أتكلف بها.

مشى أمامي وأنا أتبعه، ورأيته يبتعد عني قليلاً. ثم توقف ليتحدث إلى عامل المحطة، وبعد ذلك انطلق من الجهة اليسرى، فتبعته دائماً. وعندما بلغ وسعة متربة توقف بصلابة وجمود، التفت جهتي فرأيت في عينيه نوعاً من الذهول والدهشة وعدم التصديق. خمنت أن في الأمر شيئاً، سألته من بعيد وأنا أقترب منه.

ـ ياك لا بأس! ماذا هناك؟.

ـ ليس موجوداً.

ـ من؟

ـ الحلاق.

فكرت قليلاً قبل أن أقول:

ـ وماذا بعد؟ أليس هناك حلاق آخر غيره؟ وفوق هذا نحن

لسنا بقاتلين. لقد زرعت في نوعاً من الخوف حتى تبعتك. أنا لم أقتل أحداً. إذا قتلت القحاب فهن يعرفن لماذا قتلن. أنا لا أستطيع قتل حتى ذبابة.

شعرت بالعرق يتصبب، وبحالة غريبة تنتابني كلما كنت غير موافق على فعل أتخذه بإرادتي. وتساءلت مع نفسي ما الذي حصل لي الآن. أخذت أتنفس بعمق وتواتر وبطء، فهي طريقة تحميني وتطرد عني أية حالة عصبية، ثم جلست على التراب واستسلمت لعالم الداخل، اقترب مني إبراهيم:

ـ أستاذ، نحن لا نريد سوى مصلحتينا. لا نريد أن يضحك علينا أولاد الناس.

ـ نحن نضحك على أنفسنا الآن.

ـ لا تغضب.

ـ ما ذنبي أنا إذا وجدت ثلاث هيبيات مقتولات في غابة أو في الشاطئ؟

ـ لقد شرحت لك ذلك. إياك أن تقول بأن علينا أن نعود إلى مدينة الصويرة أو قرية الديابات. وإذا عدنا فإن خراءنا لن يلحسه كلب.

كان عالم الداخل يغلي مثل طنجرة. كذابون هم الذين يقولون بأن عالم الداخل يتحكم في عالم الخارج، يشكله، يؤطره، يغيره وأشياء أخرى مثل كيت وكيت وكذا وكذا كما يقول العرب أو كذا وكذلك كما يقول الفرنسيون نوع من الحيرة أصابتني. ولكن التنفس البطيء الرتيب المنتظم المتواتر كان

يقضي على تلك الحالة. ثم رأيت إبراهيم يتحول أمامي إلى حمار أسود عجوز، ووراء ثعلب يشم ذيله، والحمار يحرك قائمته الخلفية اليسرى يريد أن يركله. لكن الثعلب، كان يتراجع، بدهاء وثقة في النفس. ومسحت عيني بظهر كفي. فتحتهما جيداً فلم يكن سوى إبراهيم أمامي منتصباً في الوسعة. قال:

- أستاذ! لقد تركت وصية عند عامل المحطة. إذا كانت هناك شاحنة ذاهبة إلى الدار البيضاء فإن بإمكاننا أن نركبها بثمن مناسب. إن معي فلوساً، سأدفع عنك، إذا لم تكن معك فلوس. المهم أن نصل إلى الدار البيضاء وأن نبتعد عن هذا البلاء. فقد قال سادتنا الأولون «ابتعد عن البلاء قبل أن تبتلي به». وكل كلمة خرجت من أفواه سادتنا الأوائل إلا ولها شأن. أنت أستاذ وتعرف كل هذه الأشياء.

- أنت الأستاذ! ولست أدري كيف ابتليت بك؟

- لا تقل بأن عليك أن تبتعد عني.

- ابتعد عني ودبر أمر الشاحنة مع عامل المحطة.

سار باتجاه المحطة، تحول إلى حمار مرة أخرى ورأيت امرأة عجوزاً تسوطه من الخلف، وعلى ظهره حمل ثقيل من الحطب. لم أملك إلا أن أضحك من هذا المنظر. لو كان حماراً حقاً لكان أفضل، على الأقل فهو لن يتكلم ولن يعرف ما قاله سادته الأوائل، ويتحمل كل ما فوق ظهره سواء كان حجراً أو حطباً، تبعته إلى المحطة، وعندما بلغناها، فضلت أن أبقى بعيداً، وجلست على قطعة حجر جانب حائط قصير. ولم أهتم

لما قد يحصل، واستسلمت مرة أخرى لعالم الداخل بدون تركيز. كان شريط طويل فيه الملائكة والشياطين والدبابات والضباط العسكريون يتبخترون في بذلاتهم، وفي الشريط أيضاً نساء محتشمات وعاريات، وأضاء علماء نفس ملتحون، ومر أمامي في الشريط كذلك قطيع من الثعالب تدير رؤوسها يمنة ويسرة. استمر الشريط طويلاً وكرر نفسه مراراً. هلوسة حقيقية. وفكرت فيم إذا لم تكن الحياة نفسها هلوسة. وخشيت أن أقول إنها هلوسة إلهية. لكن الله أبعد ما يكون عن مثل هذه الصفات. وأنه لم يخلق هذه الحياة إلا لحكمة معينة لم يدركها إلا القليلون. أما القطيع فثغاؤه يرتفع في كل مكان، ويتناطح في كل مكان. ومرّ أمامي في الشريط رجال كثيرون يلهثون فوق النساء ولعابهم يسيل كالكلاب، ثم انفصلت النساء عنهم، وفتحن أفخاذهن للتو وأخذن يصرخن ويتوجعن «آربي»!!، ثم خرج من بين أفخاذهن أطفال صغار مثل القردة. تمت العملية بسرعة بين اللهاث والولادة. ثم بدأ الأطفال يمشون دون أن يتعلموا الحبو. ثم رأيتهم يلعبون بأسلحة نارية وقلت لا بد أنهم سيتحاربون. لأنه كان عندي يقين أن الحروب هي في أول أمرها لعبة. توقف الشريط عندما سمعت إبراهيم يقول:

ـ هيا. الشاحنة جاءت.

تبعته وبعض أشباح الشريط كانت ما تزال تتراقص في رأسي. ثم ركبنا الشاحنة بين أكياس مليئة بالقمح. وخطر لي خاطر: هل يكون إبراهيم كاذباً في ما ادعاه؟ ومن أدراني أيضاً؟ هل يكون مشتركاً في جريمة القتل؟ بدأت أسئلة كثيرة تتقافز

أمامي. الشاحنة تهتز في الطريق وإبراهيم صامت صمت المتهم النادم على فعلته. وأدركتني هواجس أخرى: إن عيون الدولة لا تنام.

وقال رجل ممدد بين الأكياس، وقدغلبه السكر أو العياء:

ـ هل تشربان؟ ابحثا هناك داخل ذلك الكيس من التبن ففيه زجاجتا نبيذ. إلى أين أنتما ذاهبان؟

أجبت بفتور:

ـ إلى الدار البيضاء.

ـ آه، الدار البيضاء رائعة. ويمكن للإنسان أن يعيش فيها مستوراً. مددت يدي إلى كيس التبن، وناولني الرجل كأساً غير نظيفة. في حين ظل إبراهيم في صمته الغريب. صمت المتهم النادم. وقلت في نفسي: «متى أصل إلى بيتي لكي أستريح، وأكتب فيما بعد قصة جديدة؟...».

مكتبة
الأدب
المغربي